فتحي هاشم

الأسطورة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة

اهداءات ٢٠٠١

ا.صلاح راتب

القاهرة

الأسطورة

نص

بقلم

فتحي هاشم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة



ليس من المألوف أن يحظى موظف صغير بالشهرة وذيوع الصيت ، ولكن « محمد أبو العز » ، حققت له الأقدار هذه الميزة التي تتقصف لها أعناق الرجال – وللأقدار نزواتها – فكان أن صار اسمه واحداً من تلك الأسماء الضخمة المعروفة لجميع أهالى مديرية قنا .

والوظيفة التي يشغلها لا دخل لها بهذه الشهرة ، فإن وظيفة « كاتب أرشيف » بإحدى المحاكم ، لا يمكن أن تضفى على صاحبها أى بريق ، بل هى على النقيض، تكسوه خمولاً وإذعاناً ، وتجعل على وجهه طلاء ثابتاً معتماً كتثار الغبار ، وتطفىء البريق فى عينيه ؛ فلا يطل منهما سوى ملل مستديم . والحق أن « أبو العز » ليس كذلك على الإطلاق – إنه يشذ عن القاعدة – فوجهه مشرق دائماً كأنما هو يقضى أيامه على شواطىء البحار ... كما أنه شديد الحرص على أناقته، فلا يبدو إلا حسن البزه ، برغم أن ذلك يرهق ميزانيته الصغيرة ، ولعله يفعل ذلك أداء لضريبة الشهرة التي ينعم بها ويستسر غبطتها فى قرارة نفسه . وفيما عدا ذلك، فهو رجل هادىء صموت ،

لا يتحدث إلا قليلاً ، بل ويبدو عليه الارتباك ـ خاصة ـ إذا توجه إليه أحدهم بسؤال مباغت . حينئذ يكفهر وجهه ويتضرج ، ويظل لا يجد النطق برهة ، ويروح يقلب وجهه يميناً وشمالاً متهرباً من عيني محدثه ... وعندما يشرع فى الكلام ، فإنه يمضى فيه ببطء ، وخفوت ، وحذر ، وهو طبع جعل الكثيرين يصفونه بأنه (دحلاب خنيس) وهى تهمة بعيدة عن الإنصاف ، والغالب أنه يعانى إرهاقاً عصبياً ـ ستعرفون أسبابه من تلقاء أنفسكم فيما بعد ـ وهو يحاول أن يخفيه تحت غلالة من الهدوء والصمت .

ولست أبغى إثارة حيرتكم حين أقول إنه لا يتمتع بأية موهبة ـ برغم ذيوع صيته ـ فلا ذكاء ، ولا علم ، ولا حتى خفة دم ! ! ... فهو فى دخيلته لا يزيد فى الواقع على أى موظف أرشيف عادى ، بكل معلوماته التافهة عن الدوسيهات والأوراق والصراصير والفئران .

وهو ممن يحرصون على التقاليد ، فلا يدع اسم زوجته يأتى على لسانه أمام الأغراب ، وإذا اضطر للكلام عنها أومأ قائلاً « الأولاد » ، ومع ذلك فأنا لن أفشى سراً من أسراره إذا ذكرت لكم اسمها ... ذلك لأن اسم زوجته تسرب إلى خارج جدران بيته الصغير ، وأصبح مقترناً بالشهرة التى يحظى بها رب البيت ، بل لعل له النصيب الأوفر من تلك الشهرة ... حتى أن زوجات المأمور ، وطبيب المركز ، بل

وزوجة مدير المديرية ، عندما تلفظ إحداهن الاسم ، فإنها تقوله بلهجة فيها الكثير من البساطة والإعزاز اللذين يلفظ بهما المرء أسماء من يألفهم ويحبهم من الأصدقاء : فردوس ... هذا هو اسمها . والناس فى المديرية كلها يقولون : « فردوس أبو العز » .

وكأنما الطبيعة أرادت أن تساعد هذين الزوجين على حياتهما المنمقة فلم يرزقا سوى ولدين ... الأول أنجباه فى العام الأول لهما فى المدينة — وكانا حديثى عهد بالغربة — فأسمياه (غريب) . والثانى أنجباه بعد ثلاث سنوات ، وكان الاستقرار قد بدأ يرسى دعائم حياتهما ، وصار لهما أصدقاء ومعارف ، فأسمياه (عزيز) .

ومحمد أبو العز يحب زوجته ، وهى أيضاً تحبه ، ويبدوان دائماً على قدر كبير من التفاهم الصامت . والرجل يعرف دعابة واحدة لا يفتأ يداعب بها زوجته منذ سنين ... فهو حين يكون منبسط النفس رائع المزاج يفاجئها منـــادياً « يا جنة ... » . وهذا النداء لم يعد الآن يرسم علامات التساؤل على وجهها كما كان يحدث فى الماضى — حين ابتدع زوجها هذه الدعابة — فقد كانت فى بادئ الأمر ، حين تلتفت إليه مستغربة هذا النداء ، يقول لهـــا ضاحكاً: « لم تتعجبين ؟ . . . ألست فردوس ؟ . . . وما الفردوس وما الجنة ؟ ... آه يا فردوسى يا جنتى . . » .

وإذا ما اضطرتهما الظروف إلى الظهور معاً فى مجتمع من الناس – ويكون ذلك عادة حين يتلقيان دعوة من أحد الأعيان أو موظف كبير – فإنهما لايكفان عن تبادل النظرات خلسة . وكأن كلاً منهما يستمد العزم من الآخر .

ولم أتكلم عن زوجة محمد أبى العز لمجرد التقحم على حرمة بيته ، بل عندى لذلك سبب قوى ، ذلك لأن السيدة فردوس هى حاملة التميمة السحرية ، التى بسببها ذاعت شهرة بيت أبى العز بين الناس . . . والتميمة هى عقد من الماس المنضود ، تحلى به المرأة جيدها فى الأفراح والولائم وفى المناسبات التى تزورهم فيها أسرة وجيه من الوجهاء . ولعلمها بأهمية ذلك العقد ، وبأنه سر الحظوة والاهتمام ، اللذين تتمتع بهما هى وزوجها ؛ فإنها لا تنسى أبداً أن تتحلى به فى أية مناسبة من هذه المناسبات ، حيث يتلألأ على صدرها ، مجتذباً أنظار النساء فيرحن يرمقنه فى بهر وحسد . بينما الرجال يدورون من بعيد مسترقين النظر إلى هذه الجواهر النادرة ، الفائقة النقاء والجمال .

ولقد قرر بعضهم ثمنه بمائة ألف جنيه ، وآخرون قدروه بمائتى ألف ، بينما عدد من المغالين ارتفعوا بثمنه إلى خمسمائة ألف . ولكن القرويين كانوا أكثر سخاء ، فإذا ذكروا العقد قالوا إن ثمنه ألف ألف دينار ... متناسين أن الدينار عملة لم يعد لها وجود سوى فى الأساطير ... ولا شك أن حكاية العقد

تبدو لهم ، وكأنها أفلتت من عالم الوهم والخيال ، ونزلت لتعيش فى دنياهم حقيقة ملموسة ... حتى أن بعض الرواة ، حين يأخذ بلبهم سحر الليالى القمرية فى الريف ، وتسكر نفوسهم بحكايات الجن والشاطر حسن ، وفردوس أبو العز وعقد الماس . وهم حينئذ لا يقولونه (الماس) وإنما يحولون السين الهامسة إلى ظاء غليظة تملأ أفواههم وينطقونها (الماظ) . وحين يتصدون لتقدير ثمنه ، ويجدون الألوف تدور على ألسنتهم ، فإنهم لا يجدون حرجاً فى إطلاقها بلا حساب : ألف ألف ألف دينار ! ! ...

وأيلولة هذا العقد النادر إلى بيت أبى العز لها قصة يعرفها الناس جيداً . والواقع أن هذه القصة — وليس العقد وحده — كانت هى السبب فى ذيوع صيت (محمد أبو العز) وزوجته لما اتسمت به من غرابة وبعد عن المألوف . ولقد وقعت هذه القصة على النحو الآتى منذ خمسة عشر عاماً .

فى ذات يوم دخل أبو العز على زوجتـــه وهو يتوثب من الفرح ، وناداها بنبرة فيها تدليل وأمر « يابنت ياجنه » وردت عليه تستمهله ، ولكنه عاد يلح « تعالى حالاً ... تعالى ... » وحين أقبلت مسرعة ، وقد رابتها لهجته الغريبة المتعجلة تلقاها صائحاً بلهجة الظفر : « تعالى يافردوسى ياجنتى لقد جاءنا الفرج ... » وسألته مستبشرة « ترقية .. أم علاوة » وحين أجابها بازدراء « لا هذه ولا تلك .. » صمتت فهى لم

تكن تعرف لزوجها طريقاً آخر يأتى منه الفرج سوى هذا الطريق الوعر . وأخذت ترمقه فى فضول بينما تلكأ هو مستطيباً حيرتها ، ثم صرح فى النهاية « ميراث ! ! »

ورقص الأمل فى عينى فردوس حالما سمعت هذه الكلمة التى تشيع فى النفس شعوراً لا يقل إبهاماً ولذة مما تشيعه كلمة (كنز) أو (لقية) ثم سألته وهى تكبت ابتسامة « ومن المرحوم ؟ .. » فأجابها « جدى - عم أبى - عبدالقادر الشربينى وعلينا أن نعد العدة للسفر إلى القاهرة ، إنها فرصة لك أيضا لزيارة أقربائك هناك » .

وبعد ثلاثة أيام سافر الزوجان بعد أن تركا ولديهما - غريب وعزيز - فى رعاية جارهما الشيخ ممدوح السهتان ، وهو صاحب دكان عطارة ، وقد اعتاد أبوالعز وبعض زملائه الموظفين قضاء الأمسيات أمام دكانه مستعيضين بذلك عن المقهى ونفقاته . والشيخ السهتان فى الخمسين ، يميل إلى السمنة مستدير الوجه ، أبيض ، قليل الكلام ، وعيناه تبدوان كعينى طفل هادئ الطبع حالم ، ولعلهم من أجل ذلك ، أسموه السهتان . وفى حوزته صندوق كتب يحرص عليه أشد الحرص فلا يدعه دون إغلاقه بالقفل أبداً ويشاع عنه أنه يقرأ كتباً لا يستباح لمن فى مثل سنه قراءتها .. كتب الحكايات والحواديت ، وألف ليلة وليلة ، والأميرة ذات الهمة وغيرها وهو يخادع المحيطين به ، بأن يدس الكتاب من هذه الكتب

فى غلاف رمادى سميك يحمل عنوان « الدرة النادرة ، فى علوم الآخرة » .

وقد اختاره محمد أبوالعز لرعاية أطفاله فى غيبته لما بينهما من صداقة وألفه ، ولما هو معروف عن الشيخ السهتان من طيبة قلب وهدوء .

وكان محمد أبو العز ، قد قدر لرحلته أسبوعاً ، ولكن غيبته استطالت إلى أسابيع دون أن تصل عنه أنباء ، حتى أن الشيخ ممدوح داخله القلق ، أما ولداه فقد انتابتهما الوحشة لغياب والديهما ؛ وفى ذات يوم وصل خطاب إلى غريب – سلمه إليه فراش المدرسة التى هو فيها – والرسالة كان فيها الكثير من النصائح التى لم يهتم بها الغلام . بيد أن بضعة أسطر فيها قد أثارت ذهنه الصغيرة وملأته بالعجب والاندهاش وقد جاء فيها « ولدى الحبيب .. لست أدرى ماذا أقول لك وهل يا ترى ستفهم معنى ما سوف أقول .. لقد أكرمنا الله فى النهاية ووجدت عقداً من الماس . أتفهم معنى هذا يا ولدى الصغير ؟ ... إنه ثروة هائلة ، إنه يساوى نقوداً كثيرة ، كثيرة جداً جداً ... وأنا وجدت هذا العقد فى صندوق قديم تكدس عليه التراب ، وكان ملقى فى متاع جدى رحمه الله ، وكان قد اشتراه لزوجته الثانية التى كان يحبها حباً شديداً ، وكنا نظن جميعاً أنه باعه بعد وفاة زوجته . ولكن هأنذا قد وجدته ، فحمداً لله ألف حمد » .

قرأ الغلام هذه الفقرة ، ولم يطق كتمان هذا السر الهائل ، فما كاد يبارح المدرسة حتى انطلق إلى دكان الشيخ السهتان ودخل عليه باسطاً الرسالة تحت عينيه .

وقرأ الرجل الرسالة ، وأعاد قراءتها ، ثم طواها بانفعال وهو يردد بصوت زاخر : « هذا عجيب . . . عجيب جداً ومدهش ! ! ... هذا كنز ، كنز وانفتح تحت أقدام محمد أبو العز ... » .

وفى المساء ، عندما اجتمع الأصدقاء أمام حانوته كالمعتاد لم يذكر لهم شيئاً عن هذه الثروة التى هبطت على محمد أبوالعز . ولكنه فى الليلة التالية خرج فجأة من صمته قائلاً بصوت مرتفع : « اسمعوا ... عندى لكم حكاية ... » فالتفتوا إليه جميعاً متأهبين للإنصات ؛ ولكنه بدلاً من الكلام راح يمصمص شفتيه متعجباً ، حينئذ استحثه أحدهم باسماً « حسناً... ماذا عندك يا شيخ ممدوح ؟ » . اعتـــدل الشيخ وشملهم بنظراته ثم قال : « كنت أظن أن العجائب أشياء لا تحدث سوى فى الحكايات .. . ولكن حدث ما جعلنى أغيّر هذا الرأى ... فهناك حادثة عجيبة وقعت لأحد أصدقائنـــا الأعزاء . . . » وسكت فترة وهو يدور عليهم بعينيه ثم استطرد :

— هل تعرفون صديقنا أبا العز ؟

ورد أحدهم على الفور :

— طبعاً نعرفه . ماله ؟ ... هل انقلب غزالاً ؟
وقال آخر معترضاً :
— من يدرى ؟.. لعله صار قرداً فى النهاية ! !
ولم يهتم الشيخ ممدوح بهذه السخريات ، وإنما واصل كلامه بهدوء :
— وصلتنى منه رسالة بالأمس .. وسأحكى لكم القصة التى ذكرها لى فيها ... قال إنه بعد أن تم له استلام التركة التى آلت اليه من جده — وكان من بينها قصر قديم — رأى فى منامه أنه يسير وسط الحقول والزهور . وفجأة برزت أمامه امرأة فائقة الجمال ... وقالت له وهى تبتسم ... اذهب إلى القصر القديم فأنت الموعود — وادخل الحجرة الشرقية... ».
وفى اليوم التالى عندما صحا من نومه ، وجد فى نفسه حنيناً لزيارة القصر القديم . وهناك مكث ساعة وهو يتنقل بين الردهات والحجرات ، وكانت أغلبها فارغة إلا من بعض قطع الأثاث ، والثريات المدلاة المتربة . ولم يذهب إلى الحجرة الشرقية لأنه لم يكن يعرف الشرق من الغرب فى هذا المكان ... وفى النهاية عاد خائب الأمل . ولكنه فى نفس الليلة رأى المرأة من جديد ، وقالت له نفس العبارة ... « اذهب إلى القصر القديم » وعندما تصبح فى الطابق الثانى ، سر إلى اليمين .. إلى اليمين ، وقف أمام المرآة . . . ستجده هناك فى انتظارك ، فأنت الموعود ... ثم اختفت . وقام من نومه وهو يستعيذ بالله من

الشيطان الرجيم ، واعتبر الأمر أضغاث أحلام . ولكنه حين غادر البيت وجد نفسه مدفوعاً فى الطريق إلى القصر . . . وهناك وقف فى الطابق الثانى حائراً يفكر فى معنى قولها : « إلى اليمين إلى اليمين » . ورأى عن يمينه دهليزاً يحفه صفان من الحجرات فسار فيه حتى نهايته ؛ حينئذ ومض فى ذهنه معنى قولها : « إلى اليمين إلى اليمين » ... فمعناه أن يسير إلى اليمين وأن يدخل الحجرة التى عن يمينه ...

دفع باب الحجرة ودخل ؛ فوجد بداخلها سريراً ضخماً عتيق الطراز ، عليه حشية ممزقة ، وصوان ملابس فارغ مفتوح الأضلاف ... وتذكر قول المرأة – قف أمام المرآة – فتطلع حوله،ولكنه لم يجد مرايا على الإطلاق . وحين عاود النظر مدققاً ، لمح مرآة على الجدار ، ولم يكن قد رآها أول الأمر ؛ لأن صقالها كان منطفئاً يغطيه التراب ... وتحت المرآة مباشرة ، كان يوجد صوان صغير دقيق الصنع ، فراح يقلب فيه ويفتح أدراجه . لم يجد شيئاً سوى بعض العلب القديمة الصدئة ، وبعض أدوات الزينة ... وفيما يده تروح وتغدو أحس بشىء يتحرك تحت أصابعه ... كان نتوءاً لولبياً ، ضغط عليه وفى الحال انفتح درج سرى . وأسرع يمد يده بداخله ، فعثر على علبة من الخشب المحلى بالصدف أخرجها بيد مرتعشة ، وحين فتحها وجد بداخلها ... ماذا تظنون ؟ . عقداً من الماس ! ! . »

وأصغوا اليه مأخوذين بحديثه ، وإن كان بين آن وآخر يومض الشك فى عيونهم . وحين انتهى غلب الشك على الانبهار . فصاح فيه أحدهم :

— هذا غير معقول ... أنت اخترعت هذه الحكاية ...

ارتفع حاجبا السهتان من الدهشة ، وقال مدافعاً عن نفسه :

— أنا ؟ ! ! ... إنه عقد من الماس ...

قالها بقوة وكأنه ينطق قسماً . على أن الأصوات راحت تحاوره :

— ومن أخبرك بكل هذا ؟ ... ومحمد أبو العز لا يزال غائباً ...

— قلت إنه أرسل لى رسالة ...

— وأين الرسالة ؟ .. أطلعنا عليها ...

— سأطلعكم ، بشرط أن تعدونى بالكتمان ... فقد طلب منى ألا أذكر شيئاً من ذلك لأى إنسان ...

وأخرج من جيبه الرسالة التى وصلت لغريب ، وطواها مخفياً باقى أجزائها ما عدا الجزء الذى به الحديث عن العقد ، ثم عرضها عليهم دون أن يسمح لأحد أن يمسكها بيده ...

قرأ الرجال نفس الأسطر ، وبهرتهم كما (بهرت)غريب والسهتان من قبل . وانقسموا إلى فريقين — مصدق ومكذب — ودخلوا فى جدل حول هذا الموضوع . وسايرهم الشيخ

السهتان فى ذلك للحظات قليلة ، ثم لاذ بالصمت وانسحب إلى أغوار نفسه وتركهم يلغطون ... وقبل انصرافهم عاد يذكرهم بضرورة الكتمان ؛ فهزوا رءوسهم موافقين .

ولكن القصة منذ اليوم الأول ، بدأت تروى بحذافيرها ، ثم بغير حذافير — إن صح هذا التعبير — وشاعت خلال أيام ، وتضخمت ، وأصبح اسم محمد أبو العز يذكر بين أصدقائه ، وأصدقاء أصدقائه ، بمزيج من العجب والحسد .

مر أسبوع . وتسلم غريب رسالة تبشره بقرب عودة والديه ؛ وتحدد له اليوم والساعة . وتخبره بأن والده عدل عن بيع العقد ، وبأنه سوف يحضره معه ...

وفى الموعد المحدد ، حين دخل القطار محطة المركز ، دهش محمد أبو العز حين وجد جمعاً حاشداً من أصدقائه ، واقفين لاستقباله ... وتأثر الرجل تأثراً شديداً لهذا الوفاء والأريحية ... وما كاد يقع فى أحضانهم ، حتى بدأ يسمع مع القبلات ، عبارات كهذه : « ماذا فعلت بالعقد » ، « مبروك . تستحق هذا وأكثر » ، « ابن حلال . وأهل لهذه النعمة » . واستيقظت فيه الريبة وسليقة الحذر ، فراح يجيب عن أسئلتهم إجابات غامضة أكثرها همهمة ...

ورافقوه حتى البيت وهم يغدقون عليه أحرّ عواطفهم وأشواقهم . وحين خلا إلى أهله فى النهاية سمع من ولديه

ما صار يروى منه من حكايات ذات وقائع جليلة ، وما يشاع عن الثروات الطائلة التى ورثها ، فابتسم ولم يعلق بشىء .

راقت له القصة ، فراح يتظاهر بأنها وقعت له فعلاً .

وفى ذات يوم دعيت فردوس إلى أحد الأفراح ، فذهبت وهى متحلية بالعقد . وحين لمس الزوجان ماحققه من نتائج باهرة ؛ صار من المألوف أن تتحلى به المرأة فى كل مناسبة وأصبح محمد أبوالعز يرد عن أسئلة الفضوليين بجسارة أكثر بل وأسهم إسهاما صغيراً فى هذا الموضوع ، فقد كان مما قاله كامتداد لهذه القصة ، أنه عندما انتوى بيع العقد ظهرت له نفس المرأة فى المنام وهى تبكى بكاء مراً وتقول : « أهكذا تفعل بى أيها الموعود !! ... وأنا التى ائتمنتك على جواهرى أهكذا تريد أن تبيعه ... تبيع حلية جدتك ؟ .. » فاستيقظ من نومه وهو يستغفر الله العظيم . ويبكى بدموع الندم لأنه أراد أن يفرط فى هذا العقد النادر الثمين .

ولم يفعل شيئاً أكثر من هذا ، وإنما ترك الأمور تمضى على هوى الناس . وصار اسمه ينمو ويشتهر ، والحكايات المثيرة تروى وتتنوع ، ثم ترتد إليه مهولة مبهرجة ، فيتلقاها راضياً ناعماً . وظل طوال هذه السنوات ينعم بالحفاوة والشهرة ، وكان من الجائز أن تمضى الأمور على هذا النحو إلى آخر العمر ، لولا أن وقع الحادث الذى لم يكن فى الحسبان ففى ذات يوم هبط المدينة رجل غريب عنها ، كان مفتش

التاريخ ، وقد جاء لزيارة المدرسة الثانوية . وقضى نهاره فى المدرسة ، وبعد الظهر خرج قاصداً نادى الموظفين ليمضى السهرة هناك .

وفيما هو فى الطريق لمح محمد أبوالعز ، فأشرق وجهه وتهلل ، وهجم عليه باسطاً ذراعيه . وضمه إلى صدره معرباً عن فرحته بهذا اللقاء النادر غير المتوقع ولكن (محمد أبوالعز) بدا عليه الشحوب وعدم الارتياح ، أصيب المفتش بالجمود هو الآخر ، وأخذ يحدق فى وجه صاحبه مستغربا ثم قال :

ـ ألست محمد افندى أبو العز ... لا تعرفنى ؟ أنا عبدالله الحاوى جارك وصديقك القديم ..

ابتسم أبوالعز ابتسامة مغتصبة وهو يرد :

ـ طبعاً أعرفك .. هل هناك من ينسى أصدقاءه القدامى

عاد الإشراق إلى وجه المفتش وراح يستفسر منه عن الصحة والأحوال ثم جذبه من ذراعه ومضى به إلى النادى وهناك جلس محمد أبو العز متململاً جامد الوجـه .. ولم يمكث سوى لحظات قليلة ثم قام معتذرا بالصداع وحيًّا صاحبه ببرود وانصرف .

شعر المفتش بالاستياء من تصرف صاحبه الخالى من الود ، بل ومن الذوق وقال فى نفسه : « إنه حتى لم يدعنى إلى بيته ! ! » .

وأقبل عليه مدرس التاريخ فى تلك اللحظة . وقال وهو يجلس :

– هل تعرف هذا الرجل – محمد أبو العز – تصور إنه من أغنى أغنياء المديرية .. وربما كان أغناهم جميعاً .

مطّ الأستاذ الحاوى شفتيه قائلاً :

– من أين يأتيه الغنى ؟

حينئذ انطلق المدرس يروى ماهو شائع عن محمد أبوالعز من بعض حكايات وعن امتلاكه لعقد من الماس النادر وفوجئ المدرس بضحكة مجلجلة صادرة عن المفتش فقطع حديثه متسائلاً :

– لعلك لا تصدق هذه الحكاية ..؟

ورد الأستاذ الحاوى بغموض :

– بل أصدقها .. فقد كنت معه يوم وجد العقد ... وكنت معه يوم ذهب به إلى تاجر المجوهرات أيضاً ... فقد كان لأسرتينا صداقة قديمة ...

ارتفع حاجبا المدرس ، وسأل فى فضول :

– كنت معه عند تاجر المجوهرات ؟ .. وبكم قدّره ؟

أجاب المفتش وهو يحرك يديه فى الهواء :

– لم يقدره بشيء ... إنه عقد مزيف ! !



الضحية

كان واضحاً أنه ارتدى ملابسه على عجل .. فربطة العنق مكرمشة وعقدتها تبدو منحرفة قليلاً عن موضعها وشعره الممشط فى غير عناية ، مازالت خصلة منه لم يضمها المشط إلى أخواتها فتهدلت فوق أذنه اليمنى ، وعيناه حمراوان، ووجهه شاحب مربد ، شأن من ألمت به كربة مفاجئة .

وأسند رأسه المكدود إلى الوسادة المثبتة فى ظهر الكرسى دون أن يهتم بتفحص الركاب – كعادة المسافرين الذين يشاركونه الدرجة الثانية فى قطار الصعيد .

كان يبدو كمخمور أرهقته الجلبة .. وأحاديث الركاب ونداءات الباعة وضجيج القطار ، تندمج فى صوت واحد كالطنين وتلفه فى دوامة تغوص به فى فجوة عميقة من اللاوعى حيث جمد تفكيره وخياله على ورقة صفراء .. بها عبارة مقتضبة « احضر حالاً . أبوك قتل .. » وساءل نفسه: من يا ترى الذى قتله .. ولماذا .. وبأى شىء ؟ ولكن هذا التساؤل لم يلح على خاطره سوى مرة واحدة ونسيه بعدها .. ولم يبق فى رأسه سوى حقيقة واحدة قاسية .. هى أن أباه قد مات .. ومات مقتولاً . وأدار رأسه ونظر خلال النافذة فرأى الأراضى تدور أمام عينيه واسعة ممدودة والنجوع ملقاة

فى وسطها .. وتذكر قريته ، فهى الأخرى ملقاة وسط الأراضى الواسعة . ثم أرخى عينيه ونظر إلى ساعته فألفاها تشير إلى الخامسة ، وتمنى لو أصيب السائق بالجنون ، فزاد من سرعة القطار إلى أقصى ما يستطيع ...

واعتدل فى مجلسه وأخرج سيجارة وأشعلها ، وجذب نفساً عميقاً ثم نفثه بحرقة وأحس برأسه يثقل على عنقه كأنه يلبس طاقية من حديد فأسنده إلى الوراء . ثم استرخى قليلاً وبدا هادئاً ... برغم ما كان يشعر به من قلق ممض وملل جعلاه يحس كأن الوقت يمر به مراً بطيئاً متعمداً كسلك نحاسى بارد ينسحب خلال قلبه .

وبعد ساعة توقف القطار عند محطة بدون رصيف ، ليس حولها أبنية سوى كشك خشبى مطلى باللون الأخضر هو مكتب ناظر المحطة .

وغادر مصطفى القطار وبيده حقيبته الصغيرة ، وأخذ يدير عينيه يميناً وشمالاً فى دهشة بالغة ؛ لأنه لم يجد أحداً فى استقباله . وحدث نفسه وقد تبلبلت خواطره « ماذا جرى ؟.. لقد أرسلت برقية أنبئهم بأنى سأصل فى قطار السادسة » .

وبعد أن غادر القطار المحطة وجد نفسه وحيداً وقد جثمت الوحشة على المكان فالأراضى على جانبى السكة الحديد تبدو سوداء قاحلة لم ينبت فيها زرع بعد . وانتظر قليلاً ثم لم يسعه فى النهاية سوى أن يدفع بقدميه المتعبتين على الفلنكات .

وسار مطرق الرأس يتخير لقدمه موضعها ومجرد التفكير فى طول الطريق يثير أعصابه ، فعليه أن يسير ساعة من الزمن حتى يصل .. هذا إذا سار سيراً حثيثاً جاداً ... وكان يهمه أن يصل القرية قبل حلول الظلام ،لذا راح ينقل قدميه بسرعة برغم ما يعانيه من انقباض وضعف .

وظل سائراً إلى أن بلغ قنطرة خشبية فتلكأ قليلاً وهو يعبرها .. وألقى نظرة على التيار المائى العكر الذى ينساب فى القناة من تحته ولم يفرح قلبه كما اعتاد أن يفرح كلما مر فوق هذه القنطرة بعد غيبة طويلة . وبعد أن اجتازها ، أخذ يسرع الخطو على الجسر الزراعى وهو يمد بأنظاره إلى بعيد عساه يرى أحداً آتياً لاستقباله . وما عتم أن رأى رجلين يظهران فجأة عند منعطف الطريق – كل منهما يركب حماراً – وما كادا يريانه حتى لوَّحا له بأيديهما من بعيد وهما يستحثان البهيمتين على الإسراع .

وعندما اقتربا منه استطاع أن يتبينهما فأحدهما محمود ابن عمه والثانى عم عبد الجواد الذى يعمل فى حقول والده ، وقد لاحظ أن كلاً منهما يحمل بندقية على كتفه .

وترجل الرجلان قبل أن يصلا إليه ببضعة أمتار وعندما تلاقوا وقفوا صامتين برهة ... وأخذ محمود يرمق ابن عمه، بنظرات كان الشوق فيهما طريحاً تحت غشاء من الحزن والألم.

ومد عم عبد الجواد يده الجافة الخشنة وهو يقول بصوت

خفيض متحشرج « البركة فيك ... » وتبعه محمود فصافح مصطفى ، وضغط يده بقوة دون أن يهزها ، وقال وهو ينظر فى عينيه نظرة ثابتة : « البركة فيك ... يا أستاذ » ثم أفلت يده وقاده برفق ناحية الحمار المسرج ليركبه .

وسارت البهيمتان بالرجال دون أن يسمع سوى وقع حوافر ، وبعد قليل تكلم مصطفى فسأل فى صوت خافت :

- هل دفنتموه ... ؟

فأجابه محمود دون أن يلتفت « دفناه منذ قليل .. إننا عائدان من المدافن .. وهذا ما أخرنا عن استقبالك ... »

وصمت مصطفى قليلاً ثم عاد يسأل :

— ومتى قتل ... ؟

— بالأمس بعد الظهر ..

— ومن الذى قتله .. ؟

ومرت بعينى محمود التماعة حاقدة .. قبل أن يجيب :

— قتلته عائلة أبى فرس .

وعلت الدهشة وجه مصطفى :

— عائلة أبى فرس ! ! ليس بيننا وبينهم عداوة فلماذا قتلوه .. ؟ ! !

فأشاح محمود بيده وهو يقول : « اسأل عم عبد الجواد لأنه كان هناك ... »

فأدار مصطفى عنقه ببطء ناحية الرجل وسأله :

— كنت هناك .. يا عم عبد الجواد ؟

فأومأ الرجل برأسه قبل أن يقول :

— ذهبنا مبكرين ونحن نحمل معنا تقاوى الفول ... إلى الغيط الشرقى ... وعندما شرعنا فى قياس الأرض ، اتضح لنا أن الحجر الذى يفصل بين حدود حقلنا وحدود الحقل المجاور قد زحزح عن موضعه بمسافة ثلاثة أشبار داخل حقلنا .. وأنت تعرف أن الحقل المجاور لنا من الناحية الغربية هو حقل مرجان أبى فرس .. وكانت عائلة مرجان هناك تبذر البذور هى الأخرى ... فذهب والدك — رحمه الله — إلى مرجان وخاطبه فى شأن الحجر المنقول ولكن مرجان أبى أن يسمع له وزعم أنهم قد فرغوا لتوهم من قياس الأرض دون أن يلحظوا شيئاً من ذلك ... فطلب منه أبوك أن يعيدا قياس الأرض معاً ، لكن مرجان رفض هذا أيضاً ... حينئذ ثار أبوك فى وجهه ودارت بينهما مشادة تبادلا فيها الشتائم إلى أن قال أبوك وهو يصرخ فى وجهه ، ماذا يا مرجان يا ابن بخيته .. ! ! أتريد أن تسلبنى أنا علوان أبو طاحون — ثلاثة أشبار من أرضى ... هل أنا قليل فى عينيك ؟ ... عجايب ! ! .. ثم ضرب أبوك كفاً بكف واندفع يقول : أليس جدك هو أبو فرس الذى هبط قريتنا جائعاً .. فأخذه العمدة من جملة خدمه ... قال أبوك هذه العبارة وبعدها ... دوَّى طلق نارى سقط بعده المرحوم ...

وصمت عم عبد الجواد ريثما يمسح دمعة انسابت من عينيه ، ثم استطرد فى صوت باك وكأنه يعتذر عما حدث لم يكن أحد يتوقع ذلك يا ولدي . . فقد كان الملعون ، أبو شامة بن مرجان يقف بعيداً يتسمع إلى النقاش الدائر بين أبيك وأبيه ومعه بندقيته .. إلى أن تفوّه أبوك بهذه العبارة الأخيرة فتقدم وأطلق النار ...

وفكر مصطفى قليلاً ثم قال متسائلاً :

– أليس أبو شامة هو ذلك الفتى الطويل النحيل ذو الوجه الملىء بالبثور وفمه واسع ؟

فأجاب محمود عابساً « هو بعينه ... »

وأخلدوا جميعاً إلى الصمت بعد هذا الحديث ، ولم يفه أحدهم بكلمة حتى أصبحوا عند باب الدار فنزلوا عن ظهور الحمير ، وخطا مصطفى نحو المنزل يريد أن يدخل فتداركه محمود وأمسك بذراعه قائلاً وهو يشير إلى بناء مستطيل مطلى باللون الأصفر وأمامه أرض فضاء : «عمك منصور وباقى الأعمام ينتظرونك فى المندرة البحرية ... »

وبلا كلام استدار مصطفى وسار إلى المندرة ، واجتاز الباب إلى ردهة متسعة أرضها معقودة بالطوب اللبن وفى أحد أركانها زير عليه كوز من الصفيح .. وعلى جانبى الردهة حجرتان إحداهما مفتوحة وتنبعث منها أصوات رجال يتحدثون فاتجه إليها على الفور . وما كاد يلج الحجرة حتى هب الرجال

واقفين لاستقباله ، فدار عليهم وصافحهم واحداً واحداً وكل يردد « البركة فيك .. نحمد الله على سلامتك .. » ثم أشار عمه منصور إلى دكة عليها حشية وقال : تفضل اجلس يا أستاذ مصطفى .. فأطاع وجلس على الدكة وحده دون أن يجلس أحد بجواره .. كأنهم تعمدوا أن يعزلوه كي يتأملوه جيداً .

وكانت وجوه الرجال جامدة ، وفى عيونهم حمرة خفيفة من أثر البكاء وقد لاحظ مصطفى أن أكثرهم يحمل سلاحه كأنهم أزمعوا خوض معركة حربية .

وسادهم الصمت فترة إلى أن تكلم منصور وهو رجل طويل القامة ، داكن السمرة قاسى السمات حتى ليبدو جلد وجهه الخشن كما لو صنع من طمى النيل ثم ترك فى الشمس الحارقة ليجف وله عينان شديدتا البريق قادرتان على رؤية الأشياء إلى أبعد مدى ، وشاربه الكث الأسود تتهدل شعيرات منه على شفته العليا .. وله صوت أجوف ، فى نبراته عنجهية وصلف ... وهو فى جملته أنموذج لكائن أنبتته بيئة خشنة مكفهرة .. بدأ الرجل حديثه بقوله :

ــ نحن عائلة أبى طاحون أسياد هذا البلد .. عشنا ولنا دائماً مهابة فى كل قلب .. ولم يكن أحد يجرؤ على أن يرفع عصاه فى وجه أى فرد من عائلتنا ، لقد كان جدك ــ رحمه الله ــ إذا سار فى طريق لم يبق به أحد .. وإذا تحدانا إنسان

وقال عنا كلمة سوء وبلغتنا ، فإما أن يغادر القرية وإما أن يختفى تماماً من فوق ظهر الأرض .. ولم يحدث من قبل أن قتل إنسان أحداً من بيت طاحون ، ولكن هذا حدث بالأمس ... لقد أطلق أبو شامة النار على أبيك .. وهذا نذير شؤم على القرية كلها وصمت منصور برهة ، أخذ خلالها يدعك ذقنه بخشونة وكأنه يريد أن ينتزع اللحم من حول فكيه .. ثم تناول البندقية المسندة بجواره وارتكز عليها ، وشرع يقول :

ـ كان أبوك كبير بيت أبى طاحون .. والذى قتله أحد أبناء مرجان ... ومرجان أحط أفراد بيت أبى فرس .

وهنا تململ مصطفى ، وبدأ يتكلم لأول مرة ، فقال متسائلاً :

ـ هل أبلغتم عنه ... وهل قبض عليه ؟

وأعقب سؤاله وجوم شديد ... والتمعت فى عينى منصور نظرة غضب يشوبها احتقار .. ركزها على ابن أخيه برهة ، ثم انفجر قائلاً ، وهو يهز البندقية فى يده بعنف :

ـ هل أرسلك أبوك إلى الجامعة لتتعلم فيها المياعة ؟

واقشعر جسد مصطفى لهذه الخشونة ، وتهيب نظرة عمه الصاعقة الشرسة ، وأحس بدمائه تغادر أطرافه مخلفة فيها البرودة ، فحنى رأسه وقد اشتد عليه العذاب ، ولم ينبس بكلمة ... فقد أدرك أنه أخطأ خطأً فاحشاً .

وتكلم عمه أبو الحسن ، وهو رجل ضئيل الجسم يلبس جلباباً أبيض ، ويضع على رأسه عمامة أنيقة ، قال معتذراً عن مصطفى :

— إن مصطفى ابن أخى قد أمضى معظم حياته فى البندر وهو لم يزل صغيراً وخبرته بالحياة ضئيلة ... وأطرق قليلاً مفكراً ، ثم استطرد فى لهجة من يوضح الأمر :

— إن رجال الشرطة يا ولدى ليسوا أبناء عمومتنا .. والقاضى الذى سيصدر الحكم ليس من لحمنا ودمنا إنه غريب عنا .. وعلى كل حال . فبيت أبى طاحون لم يزل بخير ورجاله كثيرون وأقوياء ... إن الضعفاء وحدهم هم الذين يتركون لغيرهم مهمة الثأر لهم ! !

وصمت أبو الحسن وتكلم منصور بعده مباشرة وكأنه يتم حديث أبى الحسن :

— إننا لن نبلغ الشرطة .. ولن نقيم المأتم ... ولن نتقبل عزاء حتى نأخذ بثأره .

ثم مد يده بالبندقية لمصطفى وقال :

— خذ هذه البندقية .. أنت الآن رجل ... وأخى الذى قتل كان أباك ... فخذ لنا بثأر أخى وأبيك ..

فمد مصطفى يده وتناول البندقية صامتاً بينما استطرد عمه :

— أنت تعلم أن كاظم أبو فرس هو كبير عائلة أبى فرس ولقد كان أبوك أيضاً كبيرنا .. فليكن كاظم فداء أبيك ...

واعلم أن أخى سيظل قلقاً فى قبره ... وأن روحه ستظل معلقة بين السماء والأرض إلى أن تأخذ بثأره ... ولولا أنك متعب من السفر لطلبت منك أن تفعل ذلك الآن .

ودوت هذه العبارة فى مسامع مصطفى فرفع عينيه وأخذ ينظر حوله فبدت له وجوه الرجال باهتة فى عتمة الغروب حيث اكتنفت جوانب الحجرة ظلمة خفيفة كأنها نفثات بخار أسود كئيب .

وظل فى مكانه جامداً شاحباً وقد غشاه الحزن ، وأدرك بوضوح قاس حقيقة ما يراد منه .. ولم تعد المأساة مجرد موت أب ، وإنما هى شىء يتخطى الأسى والألم ويرتحل بالشعور إلى مجالات أخرى ، رهيبة تكتنف الإحساس كأنها دوائر سوداء تملى إرادتها العمياء على النفس فلا يسع المرء سوى أن يشعر حيالها بالقهر والخضوع ! ! وأحس كأنه ذبابة وقعت فى شبكة نسجها عنكبوت لئيم .

ونهض متثاقلاً وهو يقول فى صوت محتبس : « اسمحوا لى بالذهاب إلى البيت .. » فوقف له جميع الرجال ، وقد بدت على وجوههم علامات الاحترام ، والإصرار الذى لا يرحم ... فكانوا كجمع من الكهنة أمام قربان أزمعوا تقديمه لإله مسعور .

وانسل الفتى من بينهم بعد أن ألقى التحية ، وغادر المندرة بخطوات متأنية وهو يحس البلادة فى جسده وفى نفسه كأنه سقى جرعة من مادة مخدرة .

وأمام البيت وقف برهة متردداً ثم دفع الباب ودخل وما أن أصبح فى فناء الدار حتى شقت أذنيه صرخة ملتاعة ... أطلقتها أمه ، حالما وقع نظرها عليه .. فتطلع نحوها بنظرات مكدودة ، حيث ألقاها واقفة بين جمع من النسوة التففن حولها ليمنعنها من السعى إليه ... وبدت متهالكة بين السواعد الممدودة وهى تشير بيديها إشارات مضطربة ورأسها الذى غطاه الطين يتمايل يميناً وشمالاً فى إرهاق وضنى ... وكانت تصرخ وتناديه « مصطفى يا ولدى .. لقد قتلوا أباك قتلوا خير الرجال فى بلدنا ... قتلوه وتركوك بلا أب . . . مصطفى . . . أتسمعنى ؟ .. »

وتسمر الفتى فى مكانه وقد خيل إليه أن صراخ أمه يبلغ سمعه ، خلال شق فى جنبه وبجهد انتزع قدميه، وسار متهالكاً إلى حصير مفروش جوار الحائط وجلس القرفصاء ... وعيناه تائهتان ، وظل كذلك إلى أن جاءته إحدى زوجات أعمامه ... وقالت له برفق وهى تشده من ذراعه لتنهضه : « انهض يا مصطفى ... وادخل الحجرة لتستريح من عناء السفر ... »

فنهض دون نقاش ، وسار معها كأنه طفل وديع تائه التقطته امرأة رحيمة من طريق مزدحم وقادته المرأة إلى إحدى الحجرات وتركته على أن ينام .

وما كاد مصطفى يضع رأسه على الوسادة حتى غلبه النوم من شدة التعب ... فرأى نفسه فى الحلم يقف وحيداً فى

مكان مهجور معتم تحيط به صخور سوداء عالية تسد عليه جميع المنافذ .. وأمامه كهف مظلم تشع منه الرهبة ... وفى يده البندقية التى أعطاها له عمه منصور ! !

وأحس كأن يداً سوداء لينة كالمطاط تدفع به ناحية الكهف دفعاً ليناً ولكنه لا يقاوم .. وحاول عبثاً أن يتراجع ، فثمة أشياء غامضة تجره جراً ناحية الكهف المخيف ثم برز أمامه فجأة شبح طويل نحيل كالهيكل العظمى .. يضع على وجهه منديلاً أسود يخفى كل معالمه .

ومد الشبح يده الطويلة النحيلة ، وتنـــاول البندقية ووضع بها رصاصة ثم أعادها له وهى محشوة وهمس فى أذنه وهو يدفعه برفق ويشير إلى الكهف « إنه هناك ... »

وأحس مصطفى كأنه يحمل حملاً إلى الكهف ، وهناك على الباب شاهد ورقة تلغراف مكتوباً عليها : « احضر حالاً .. أبوك قتل .. » فارتجف بدنه من الرعب وأراد أن يصرخ لكن صوته احتبس ، وعبثاً حاول ليتراجع فثمة خيوط عنكبوتية لزجة تلتف حول جسده وتمنعه من الحركة! وأطبق على أنفاسه هواء ثقيل مكفهر حتى كاد أن يختنق .

وكالغريق الذى يسعده الحظ فيجد نفسه فجأة فوق سطح الماء حيث يلتقط أول أنفاسه بارتياح شديد ، وجد مصطفى نفسه صاحياً والعرق يبلل جسده ووجهه .

وأخذ يجيل عينيه ببطء فى أنحاء الحجرة فبدت له ظلال

الأشياء فى ضوء السراج الخافت كأطياف تهتز فى أماكنها استعداداً للانقضاض عليه .. وأحس الخوف ينتشر فى كيانه كطوابير النمل يبعث دبيبها القشعريرة فى بدنه فجذب طرف ملاءة ملقاة عند قدميه ، وتكوّر بداخلها كأنه قوقعة تغلق صدفتها لتباعد ما بين نفسها وبين العالم .. ثم راح فى إغفاءة تتخللها رؤًى مضطربة غير واضحة إلى أن جاءه محمود فى الصباح الباكر ليوقظه .

وقال له : « إن عمك منصور وباقى الأعمام ينتظرونك فى المندرة البحرية .. » فنهض على الفور وبعد أن غسل وجهه لبس جلباباً بلدياً ... وخرج دون أن يهتم بتناول فطوره .

وعلى باب الدار وقف هنيهة يتأمل البيوت الواطئة والكلاب الريفية الشرسة وهى تزحف عند الأبواب كمن يستغرب أشعة الشمس .

وكان مصطفى يألف هذه البيوت، ذات النخيل المتراقص فوق سقوفها ، ويألف كلابها المشاكسة وكان يحبها ، ويحن إليها بين الحين والحين وهو فى القاهرة . أما هذه المرة .. فى هذا الصباح فقد بدت لعينيه غريبة السمت ! ! وبدت له ظلال حوائطها الهادئة كأنها تشاركه النحيب الخافت المدحور . ومسح مصطفى وجهه بيده ثم سار مطرق الرأس ومحمود بجواره إلى أن بلغا المندرة ... حيث استقبله فى فنائها كلبهم العطوف .. وراح يحوم حول قدميه ، ويرسل أصواتاً خافتة

أسيانة ، ويهز ذيله ويحنى رقبته فأبعده مصطفى عنه برفق ثم واصل المسير إلى أن دخل الحجرة التى كان فيها بالأمس . وحالما ألقى التحية رد عليه الرجال تحيته بأصوات فيها حمية ونخوة كعادة المعتدين بأرومتهم ورجولتهم فى ذلك الإقليم الخشن .

وبعد لحظة صمت مال منصور إلى الأمام وأخذ يتفرس فى وجه مصطفى قبل أن يقول وهو يشير بإصبعه إلى الجميع :

— إن أى واحد من هؤلاء . . يتمنى أن يثأر لنفسه بيده . . ولكنا رفضنا أن نتخطاك .. لأنك أحق منا جميعاً بهذا الثأر . . فأنت ابن أبيك .

ثم صمت وعاود التفرس فى وجه مصطفى .. وبعد قليل مط رقبته وقال فجأة :

قل لى .. ألست رجلاً ؟

وتراجع مصطفى ، وقد فاجأه السؤال وأدهشه .. وأجاب على الفور :

— ماذا تقول يا عمى .. إننى قطعاً رجل .

— حسناً برهن لنا اليوم على ذلك ، وأنقذ شرف بيت طاحون .

ثم التفت إلى شاب من الجالسين وقال :

— اذهب يا قاسم وانظر أين يكون ابن الملعون الآن ...

ابحث عنه أولاً أمام بيته حيث اعتاد أن يجلس كل صباح بين رجاله فسأله الشاب وهو ينهض :

— تقصد (كاظم أبو فرس) ؟

— أجل أقصد ابن المذبوح

وغاب الشاب ساعة . . . وعندما عاد استقبلوه جميعاً بنظرات متحفزة .. وابتدره منصور بقوله : « هيه .. هل وجدته ؟ » فأومأ الشاب برأسه قبل أن يقول : « إنه أمام بيته الآن .. ومعه بعض الرجال .. »

وبعد ما تفوه الفتى بهذه العبارة أحس مصطفى بنظراتهم تحاصره ... وقال له عمه منصور :

— والآن خذ البندقية .. واذهب أنت ومحمود ، اذهبا عن طريق الجسر من الناحية الشرقية .. فهناك أعشاب نامية على المرتفع الذى يشرف على بيت كاظم .. ويمكنكما أن تختبئا فيه ، والآن هيا اذهبا رافقتكما السلامة ، فنهض مصطفى وغادر المكان يتبعه محمود دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وظلا سائرين حتى بلغا مكاناً يشرف على بيت كاظم . وكانت الأعشاب الطويلة المتماوجة تملأ المكان فكمنا هناك ، وأخذا يتفحصان الرجال الجالسين أمام البيت .. وبعد برهة قال محمود همساً : « أترى كاظم ... ؟ ذلك الذى فى الوسط ذو الجلباب الأبيض » فأومأ مصطفى برأسه وهو يرفع بندقيته ويصوبها نحوه .. وظل لحظة متردداً إلى أن قال محمود همساً : « هيا يا مصطفى قبل أن

يبرح مكانه » فرفع يده وأحكم التصويب وضغط على زناد البندقية وفى الحال دوّى طلق نارى انكفأ بعده الرجل على وجهه من فوق المصطبة وعيناه المدهوشتان ترقبان جوانب الفضاء كأنه يبحث عن مصدر هذه اللعنة المحماة التى أصابت بطنه ! !

وأعقب ذلك فترة ظل خلالها مصطفى جامداً فى مكانه ينظر بعين مبهورة إلى الرجال المضطربين حول رجلهم القتيل.. ولم يخرجه عن جموده سوى يد محمود التى اندفعت تلكزه فى جنبه وهو يقول : « هيا بنا ماذا تنتظر ؟ » فهب مصطفى واقفاً فجأة دون أن يراعى الحذر فظهر رأسه بين الأعشاب ورآه الرجال فأطلقوا عليه الرصاص ، وقبل أن يتنبه لخطأ فعلته كانت رصاصة قد اخترقت رأسه كجمرة ملتهبة سقط بعدها ميتاً بين الأعشاب .

وأسرع إليه محمود يضمه ويفحصه وعندما تبين له موته انكفأ يبكى وينتحب نحيباً مراً خافتاً والغيظ والحزن يأكلان قلبه.

وفكر فى أن يحمله ويعود به ولكن الرصاصات التى انهالت عليه جعلته يسرع بالفرار .

وظل يجرى إلى أن صادف حقلاً فدخله ليختبئ فيه وراح يغوص داخل الحقل إلى أن أحس أنه فى مأمن فجلس على حافة قناة جافة ووضع وجهه بين راحتيه وانخرط فى البكاء وصورة مصطفى وجبينه المثقوب الملطخ بالدماء تتراقص فى خياله.

وبعد ساعة بارح مكانه وسار مطرق الرأس بخطوات ثقيلة وهو يحس فى نفسه لوعة لن تستنفدها الثارات والدموع .

أضعف الإيمان

« من رأى منكم منكراً فليغيره
بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم
يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »
حديث شريف

لست أدرى ما الذى يدعونى لأن أشرككم معى فى هذا الأسى ؟

بل أنا لا أدرى إن كنتم ستشاركوننى فيه حقا ؟ ... أم إنكم ستنظرون إلىَّ على أنى رجل هوَّال يبالغ فى القول ويسرد الحدث التافه بعبارات هائلة !

ومع أنى لا أدرى إلى من أتوجه بحديثى ، إلا أننى أجدنى مرغماً على البوح بتفاصيل ذلك الحادث الذى كتمته طويلاً فى أعماقى .

وقبل أن أتكلم واصفاً ماجرى أبادر إلى القول بأننى لم يكن لى دخل فيه ، لم يكن لى دخل من قريب أو بعيد وعلاقتى الوحيدة به هى أنه وقع أمام بصرى .. ومن يومها بقيت الصورة فى ذاكرتى ؛ وفى ذاكرتى تعيش آلاف الصور وآلاف الذكريات ، بيد أن هذه الصورة هى الوحيدة

من بينها التى تأبى أن تندفع مع التيار الهابط إلى أغوار النفس حيث الأجواف الرطبة المظلمة ، حيث النسيان . بل ظلت عالقة بذاكرتى كالشوكة محدثة مكانها جرحاً ظل يتسع مع الأيام ويتقيّح ، وينشر أوجاعه فى أعصابى ، ويجعلنى أتوهم أحياناً أن الذى يجرى فى عروقى صديد وليس دماً ! !

ولقد بدأت إصابتى فى صبيحة يوم من أيام الشتاء ؛ حين اكتشف أحدهم مصدر الرائحة العفنة التى تملأ جو الشارع .

ففى مدخل بيت قديم أخلى من سكانه بسبب الهدد ، وجدت جيفة منتفخة لغلام لم يتعد الخامسة عشرة من عمره ، وجدت ملقاة على الأرض الرطبة ، وقد انحسر عنها طرف جلباب أزرق ، كاشفاً لون االحم الرمادى الملطخ بالأوساخ إنه لحم بشرى كلحمى ولحمك ، بيد أنه فى حالة تثير الغثيان .

وكنت فى طريقى إلى عملى حين استلفت نظرى جمع صغير من الناس تجمعوا عند الباب وراحوا يمطون أعناقهم إلى الداخل فى فضول ... فاقتربت ودسست رأسى بينهم حيث رأيت الغلام .

ولم أكد أتعرف على وجهه حتى أحسست كأن الظلام أطبق علىّ ثم انجلى فى مثل لمح البصر .

وتنبهت على لفظ من خلفى ، وشعرت بأجساد بشرية تضغط علىّ من كل جانب ، فاستدرت إلى الخلف حيث

راعنى الزحام وراعنى هذا العدد الكبير من الرءوس التى تهتز وتندفع إلى الأمام تريد أن ترى ما بالداخل .

ورحت أنزلق بين الأجساد أريد ، أن أخرج من هـــذه اللمة ، وكنت على وشك الرد على شتيمة رجل دست على قدمه ، حين استلفت سمعى صوت يقول باهـــتمام « الشرطة » .

وكأن الكلمة طلسم استحضرهم إذ انشق الزحام فجأة من صدر أسود تلمع فيه أزرار نحاسية ، ومن ورائه على بعد خطوات رأيت الضابط يتقدم فى الفراغ الذى أحدثه الشرطى وكان يسير بخطاً ثابتة يحمى جناحيه شرطيان .

وعند باب البيت توقف الضابط ، واستدار إلى الشرطيين وقال لهما كلاماً وهو يشير بيديه إلى الناس ، وللحال رأيتهما يفكان حزاميهما ويعدوان وراء الجموع ؛ وراقبهما الضابط لحظة ثم دخل البيت .

وخلصت نفسى من وسط الزحام وسرت إلى الرصيف المقـــابل ووقفت وعيناى على باب البيت دون أن أهتم بفوات الوقت وتأخرى عن العمل .

ولم يكن الفضول هو الذى استبقانى ، بل شىء آخر غلب علىَّ ، وجعلنى أحس كأنى مشدود إلى المكان الذى وقفت فيه .

ودار بذهنى أن الواجب يحتم علىَّ أن أفعل شيئاً ، فأنا

أعرف الغلام ، فكثيراً ما اعترض طريقى وأنا عائد إلى بيتى عند الظهر ، وكان يفعل ذلك على نحو غريب.. مايكاديرانى حتى يأخذ فى القفز أمامى والتشقلب وإطلاق صيحات جذلى بلهاء ..

وكنت حديث عهد بسكنى العمارة — التى أنا فيها الآن — حين فوجئت به أول مرة يستقبلنى هذا الاستقبال الغريب ، ولقد غضبت يومها ، وهممت أن أبطش به لولا أن وجدت يد عم أحمد البواب تمتد بينى وبينه وهو يقول : « إنه أبله يا باشمهندس » .

ولم أرفع يدى عن الغلام بل أبقيتها ممسكة بكتفه ورحت أتفرس فى وجهه لأرى مصداق هذا القول ، فقابل نظرتى بابتسامة مشرقة ، ابتسامة طفل يتوقع منك أن تضع يدك فى جيبك وتعطيه شيئاً لا أن تضربه .

وشىء ما أثار انتباهى فى وجهه المستدير ، لعلها أفراحه البلهاء التى تطفر على وجهه وتحيله إلى صفحة رجراجة بالسرور ، ولم أستطع أن أقاوم بسمتى وأنا أقول له مهدداً :

— إياك أن تعود إلى ذلك مرة أخرى .

وكأننى وعدته بالجنة ، إذ انطلق فجأة يضحك ويصفق ويخرج من فمه أصواتاً غامضة غير مفهومة ، وانفلت جارياً من أمامى ثم ارتد إلى باسطاً كفه فى صمت .. وبدت لعينى — هذه الكف الممدودة — كأنها فعل آمر « هات » .

تحرك بعض الواقفين وهاجوا فنظرت فإذا بسيارة سوداء تسير متهادية وسط الزحام والشرطة يفسحون لها الطريق ، ثم توقفت بوقار شديد أمام باب البيت ، وكان أول الهابطين منها شاب عريض له نظرة مستعلية ثابتة كأن عينيه مسماران من المعدن اللامع دقا تحت حاجبيه ، ترمقان وتفحصان الوجوه بريبة وقسـوة ، وقبل أن يطول بى التساؤل عمن يكون، تكلم صوت فى الزحام « هذا ضابط المباحث » .

وهبط بعده ضابط شرطة متقدم فى السن ، ممتلئ الجسم مهيباً ، تستقر على عينيه نظارة سوداء أنيقة رغم ضخامتها ، والبدلة السوداء تبدو مشدودة على بدنه ، متماسكة ، لاثنيات فيهـا كأنها من الصفيح .. ومرة أخرى سمعت صوتا فى الزحام يفسر لى هذه الرؤية « هذا هو المأمور .. يقولون إنه رجل شديد الطيبة » .

وهبط من السيارة آخرون لم يهتم الجمهور بتعريفهم ، وتألفت من الجميع كوكبة صغيرة راقبها الناس باهتمام بالغ وهى تتحرك صوب الباب .

ورأيت بعد ذلك رجالا يدخلون ويخرجون ويتهامسون.. وتناثرت العربات ورجال الشرطة والمباحث ، وانداحت موجة من الرهبـة ، وتفتحت العيون والآذان وكثرت الأقاويل .

وأخيراً وصلت النيابة

ظهرت فجأة سيارة تاكسى ، وهبط منها شاب فى مقتبل العمر تضحك عيناه البنيتان من خلف نظـــارته الكروكسى ، ويحلى منتصف وجهه شـــارب دقيق رفيع يبدو كما لو كان مرسوماً بالقلم الرصاص ؛ وتقدم بهدوء ومن خلفه رجل قصير يحمل حقيبة أوراق ، كانا يبدوان كطالبين فى طريقهما إلى الكلية ، وليس ثمة ما يعنيهما أو يقلقهما ، لا الزحام ولا الشرطة ولا أى شيء على الإطلاق ...

وعند باب البيت منعهما الشرطى من الدخول ... رأيته من بعيد يسد مدخل الباب ويشير بيده وكأنه يقول لهما « ابتعدا .. » ثم رأيته ينتصب فجأة كالمصعوق وقد بان فى عينيه ذعر شديد وأفسح لهما الطريق .

وسمعت صوتاً فى الزحام يقول : « الآن سيبدأ التحقيق .. »

ولذعتنى هذه العبارة وشدت أعصابى ... وتجمعت حوافزى ، وأحسست بها فى داخلى كقبضة اليد المضمومة المتوعدة ، تضرب جدران صدرى بإلحاح وكأنها تهيب بى أن أتقدم وأتكلم ...

ولكنى كعادتى فى التريث والتفكير — وهو الطبع الذى من أجله أوصف فى محيط معارفى بأننى رجل متزن عاقل — شرعت أفترض ما ســوف يقـــال لى وأرتب فى رأسى ما سوف أقول ... وتصورت وكيل النيابة يسأل وأنا أجيب :

ـ ما اسمك ؟

ـ وديع الأنصارى

ـ وما وظيفتك ؟

ـ مهندس مبان

ـ هل تعرف الغلام الميت ؟

ـ أجل ..

ـ ما اسمه ؟

وهنا أحسست فى صدرى بالقبضة المتشنجة تتراخى وتنبسط فأنا لم أكن أعرف اسم الغلام .. وخيل إلى أن هذا مبرر كاف لإحجامى ، وأهاب بى حافز أن أنصرف لشأنى ، بيد أن العقل ـ الذى يعمل رغم إرادة الإنسان أحياناً ـ سرعان ما جابهنى بهذه الحجة « أنت شاهد ، والشاهد ليس حتماً عليه أن يعرف أسماء من يشهد ضدهم ولا من يشهد لصالحهم ... »

ومرة أخرى عادت الرغبة فى الإقدام تراودنى ، ودق قلبى وتحفزت مشاعرى .. ونشط عقلى فى ترتيب الكلام :

ـ وماذا تعرف عن الموضوع ؟

ـ أعرف أن الغلام المسكين قتل ...

ـ قتل ! ! ... ومن الذى قتله ؟

وعند هذا الحد أبت أفكارى أن تمضى ، وتعذر على أن أسوقها فى هذا المساق ، إذ ثمة تيار آخر معارض بدأ يدب فى خاطرى ، ويبدد ما احتشد من عزيمتى وبدأ عقلى يفرز مادته

الموهنة « ما جدوى كل هذا ؟ .. لقد مات الغلام وأصبح محالاً أن يعيده شيء إلى الحياة .. »

أجل هذا صحيح ، لم يعد ثمة ما يجدى ... لقد انتهى الغلام وأصبح فى قبضة الموت ، القبضة الفولاذية الخرساء ، التى يخبو أمامها ذكاء الإنسان وتنفد عندها كل حيله وقواه . وأحسست بسخافة ما يجرى من حولى : الزحام ، ورجال الشرطة بأزرارهم النحاسية ، والنيابة والمباحث ...

عبث .. كل هذا عبث ، لقد مات الغلام أيضاً فى نوبة عبث !!

قلت فى نفسى : « لو أن واحداً من هؤلاء كان موجوداً فى تلك الليلة ليذود عن الغلام ويغضب من أجله فلربما كان ذلك أنفع له من كل هذا الحشد » .

وهدأت هذه الخواطر من جموح عواطفى وأحسست بإرادتى تتراخى ... واسترحت لذلك وقلت : « الآن أستطيع أن أستعرض الموقف فى هدوء من أوله إلى آخره ثم بعد ذلك أتخذ قرارى ... »

وشققت الزحام متجهاً إلى مقهى قريب ، وهناك جلست أنظر إلى الطريق المائج بالفضوليين الذين اجتذبهم الحادث .

ورحت أهون الأمر على نفسى وأنا أرشف من فنجان القهوة « ما قيمة الغلام بعد أن مات ؟ ... إنه لم تكن له قيمة تذكر حتى وهو حى ... فأنا لم أكن أراه إلا هادئاً

على وجهه ، حافى القدمين ، ممزق الثيـــاب .. إنه فى العاشرة ، أو لعله فى الثانية عشرة ، أو فى الخامسة عشرة ، فمثله لا يستطيع أحد أن يحدد عمره تماماً ، ومع ذلك فلم يكن ثمة خير يرجى منه على الإطلاق حين يتقدم به العمر ؛ فذو البلاهة ينمـــو ولكنه لا ينضج ... ولم يكن يعرف حتى كيف يلفظ الكلمات ، وقصاراه إذا أراد الحديث أن يخرج من فمه أصواتاً ممطوطة ، تتخللها كلمات مبتورة يدرك السامع منها — بعد عناء — أنه يطلب قرشاً أو رغيفاً ... »

ولكنى لم أكد أمضى فى التفكير على هذا النحـــو حتى أحسست بالخزى .. فأنا أغتاب الصبى وآكل لحمه ميتاً ... وقلت معنفاً نفسى : « ليس هذا الآن بالقول المهم ولن يأبه له المحقق كثيراً ... فهو لن يعنيه إن كان الغلام ذكياً أم غبياً ، عظيماً أم حقيراً ... فالشائع أن المحققين قوم لا يحركون عواطفهم فى القضايا ؛ والغلام الآن لم يعد أكثر من جريمة .. لغز .. لعبة عقلية ذات قواعد .. وسيمضى فيها المحقق متوخياً الحذر ومراعياً القانون ؛ وسيهتم أول ما يهتم بالسؤال عمن ارتكبها ؟.. وكيف ؟ .. وما الدافع إليها ؟ » .

وبدأت أستعيد صورة الجريمة ، أو بتعبير أدق — جسم الجريمة — كما يقول رجال القانون .

ولم يكن الجسم هامداً كما هو الآن ، بل كان حياً يزخر بالحركة والانفعال .

وكان ملقى على ظهره ، ويداه ورجلاه تضربان الهواء ضربات هوجاء كحشرة انقلبت على ظهرها فراحت تحرك أطرافها حركات سريعة مضطربة .

كان ذلك فى إحدى الأمسيات وأنا عائد إلى بيتى ، حينما رأيته على هذه الصورة — وهى آخر مرة رأيته فيها حياً — ولم يكن قد رقد تلك الرقدة بمحض اختياره إذ أن الأرض كانت موحلة عقب نوبة من المطر وإنما محمود هو الذى أوقعه على الأرض .

ومحمود هو ذلك الشاب الغليظ صاحب دكان السجاير الذى فى أسفل العمارة .

وكان الغلام يبذل جهده لينهض ، لولا أن قدم محمود الثقيلة التى استقرت على صدره فى تلك اللحظة هى التى كانت تمنعه ... ورأيت طرف الحذاء الكالح يدغدغ صدره وجنبيه بينما صوت محمود ينصب جذلان طروباً «اضحك ... اضحك يا ولد اضحك ! ! »

ولكن الغلام كان يصرخ ويضرب الهواء بيديه ورجليه ، الأمر الذى وجد منه محمود شيئاً مسلياً فراح يمعن بطرف حذائه فى كل جزء من بدن الغـــلام . . . وزاد من النشوة جمهور المتفرجين ، كانوا بضعة رجال من أصحاب الدكاكين والباعة منتثرين هنا وهناك حول هذا المشهد وهم يضحكون ويلغطون .

وقد استطعت أن ألمح من بينهم عدة وجوه أعرفها : وجه عزيز الحلاق ذلك الوجه الضامر المطوط المتوج بغابة من الشعر الغزير ، كان واقفاً بمعطفه الأبيض والمشط يطل من جيبه العلوى ، أنيقاً كنوع مبتكر من مناديل الزينة وليس شيئاً من مقتضيات المهنة .

وعرفت من بينها وجه ديدو الكنترجى ، ذلك الوجه المنتفخ ذو العضلات المتوفزة ، الغائم أبداً فى سحابة ترابية كوجه إنسان مات بالخنق .

ومن بينها وجه بهيج ، ذلك الولد المفعوص الممصوص ، الذى كنت أعجب دائماً للتنافر بين اسمه وكسمه .

وجوه .. وجوه كلها كانت تضحك وتتأمل المنظر برضا بالغ ! ! الغلام وحده هو الذى كان يبكى ويضرب الهواء بيديه ورجليه .

وعندما حانت من محمود التفاتة فلحظنى — وأنا واقف أحدق فيه — أنزل قدمه وحيانى بأدب ... وأظن أنى رأيت على وجهه بادرة خجل .

وانتهز الغلام هذه الفرصة فقام جارياً ، لكن ديدو كان له بالمرصاد ، فما كاد يمر من أمامه حتى ركله ركلة قوية أصابت جنبه وطوحت به بعيداً على الأرض .

وظل الغلام راقداً برهة ثم رفع نفسه ويده على جنبه ، وقد تجمعت أسارير وجهه وتقلصت ، وتدلى فكه وبرز منه

طرف لسانه فبدا وكأنه موشك على البكاء ، بيد أن شبح ديدو القادم لم يدع له فرصة للعويل ، إذ ما كاد يسمع ضحكته ويراه على بعد خطوات منه حتى لملم نفسه وقام مهرولاً ورأيته يقع ثم ينهض ويده ممسكة بجنبه المضروب .

ودسست يدى فى جيبى أتلمس علبة السجائر فلم أجدها ، وقمت لأشترى واحدة وعند الدكان سمعت رجلاً يقول للبائع : « الطبيب الشرعى وصل ... »

واهتززت منذ سماع ذلك « إذن فسيعرفون مثلما أعرف ... أن الغلام مضروب .. » وتبسمت برغمى « ولكنهم لم يعرفوا من الضارب .. »

وعدت أتصور نفسى أمام وكيل النيابة وأنا أسرد عليه الأسماء ، وتخيلته يسألنى باهتمام :

— من .. من ؟ .. أعد علىّ أسماءهم ...

وألفيت نفسى بقرب الباب وهممت بالدخول لولا أن قطع علىّ طريقى صوت متباك مرتعش « حرام ... لعل لهم أولاد وبيوت ... »

وعجزت عن مناقشة هذا الصوت المتوسل الغريب وزاد من انحدارى أنى رأيت وجه محمود — بائع السجائر — بين الواقفين وكان يتطلع مثلهم فى اندهاش وفضول .

قلت فى نفسى « هذا هو القاتل ... » بيد أن هذا القول لم يكن له أى تأثير ، ولم ينصرنى على هذا الرجاء المرتعش

الذى أخذ يتردد فى صدرى منذ اللحظة التى اقتربت فيها من الباب : « حرام ... » بينما صوت آخر راح يهيب بى فى قوة وحزم « ليس حراماً .. فأنت مع القانون والقانون مع الضمير والضمير مع الحلال » .

وأحسست بالرغبة فى التقدم تراودنى ولكنها مراودة ضعيفة محاصرة .

وسرت أتسكع وسط الزحام ثم عدت إلى الرصيف المقابل ، وهناك وقفت أراود نفسى وأتدبر الأمر وأفكر إلى أن سئمت التفكير بل ويئست منه ، فأنا بعد طول إعمال الذهن لم أصل إلى قرار .

وخيل إلىّ أن عقلى ثابت كالشاطئ ، والأفكار أمواج ترتمى عليه ثم تنحسر منه برغمها عائدة إلى الأجواف البعيدة المجهولة ، بينما كل خلية فى بدنى مشحونة برغبة دافعة ورغم ذلك بقيت فى مكانى كزورق مفرود الشراع على اليابسة فمحال أن يسير .

وأحسست بالغيظ ينهشنى .. الغيظ من كل شىء : من الزحام والشرطة ووجه محمود البرىء ومن عقلى الذى ألفيته ينصرنى ويخذلنى على التوالى ... يوهمنى أن هذا الشىء خطأ ثم يعود فيقنعنى بأنه صواب ، وهو فى كلتا الحالتين يعبث بى ويهزر .

وجاء رجل يقول لآخر بالقرب مني : « الجريمة قيدت ضد مجهول »

وحين سمعت هذا النبأ أدرت عيني إلى حيث كان محمود واقفاً وحين رأيت وجهه المندهش البريء أطبق على الظلام والذهول .

وأفقت على صوت جرس يرن فنظرت إلى سيارة خضراء جاءت وتوقفت أمام الباب ، وهبط منها رجلان دخلا البيت ثم خرجا يحملان الغلام على نقالة .

وبدأت أتحرك فى ذهول وأسير ، إلى أن وجدت نفسى فى البيت فخلعت ملابسى وارتميت على السرير ، وقد صمتت كل الأصوات والهواتف إلا صوتاً واحداً منفرداً ، ظل يدوى بداخلى كنداء فى بهو متسع « جبان .. جبان .. أنت جبان » .

أحلام

كالعادة كل صباح .... لم تكد بوادر الفجر تلوح حتى ارتعشت أجفان زغلول ، وبعد لحظة فتحهما ... لم يوقظه أحد بل هكذا اعتاد أن يصحو كل يوم .... فما تكاد تنداح فى الكون أول حفنة من الضوء الشاحب حتى تنفتح عيناه كأنهما صندوقان صغيران مسحوران ، تسيطر عليهما قوة غامضـــة ... فما يكاد يحين الحين حتى ينزاح عنهما الغطاء .

هكذا كل يوم ، عليه أن يصحو مع الفجر ، أما ساعة النوم فزغلول لا يملك تحديدها وهو فى الغالب لم يكن ليستطيع أن ينام إلا بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين أو ثلاث .

وشد الغلام جسده وتمطى ، فانبعث من تحته صرير القش الذي ينام عليه... ثم ترك نفسه وغاص فى استرخاءة التمطى ، وأغمض عينيه متلذذاً بالخدر وبأطياف الأحلام التى اعتادت أن تغزو خيالاته كل صباح قبل أن يغادر مرقده الخشن ، فثمة رسم حبيب ارتسم على صفحة ذاكرته وظل ماثلاً كالصورة البادية على الستار الفضى ... كان يرى باب

شقة مواربا فى عتمة الفجر ، تبدو من خلاله أجزاء من أثاث البيت يغشاها ضوء خافت ... مائدة صغيرة مستديرة ... ونصف كرسى ضخم مذهب الحواشي ... وصورة لفتاة وهى تقضم تفاحة ... وقطع من لعب الأطفال ... ومرآة ... ونصف صوان بنى اللون ...

وتمرغ زغلول على القش ، وهو سعيد بتلك الصورة الحبيبة التى كانت حلم صباحه وأماسيه ، وانقلب على ظهره وقد لانت أسارير وجهه الصغير وانطبعت على شفتيه المطبقتين بسمة راضية .

وعندما فتح عينيه صدمتهما السماء الرمادية الواسعة ، فأحس حلمه يتبدد ويذوب فى أبعاد الفضاء .. فارتشعت جفونه وأحس كأن يداً باردة مسحت الصورة الحلوة الدافئة من صفحة خياله فعاد وأغمض عينيه من جديد ، وبدأ يزحف بخواطره إلى وادى الأحلام مرة أخرى ، واستعاد صورة باب الشقة الموارب الذى لا يبدو من خلاله سوى أجزاء صغيرة وضايقه هذه المرة — كما ضايقه فى مرات سابقة — أن خيالاته لا تنداح فتستكمل أجزاء جنته التى يحـلم كل صباح ومساء وتمتمت شفتاه ، أمنية غالية « آه لو كان باستطاعتى أن أرى الشقة كلها .. كل الحجرات التى فيها »

واخترق أحلامه صوت حاد آت من بعيد .. صفارة الشركة التى تعلن حلول السادسة صباحاً ، فذكرته الصفارة

بواجبه الحبيب الذى اعتاد أن يمارسه كل صباح ... فأزاح الغطاء عن جسده ونهض وهو يتمتم محـــدثاً نفسه سأذهب لأوفظ رضوان افندى ..

وبعد أن استوى على قدميه راح يدخل القميص فى بنطلونه الممزق ثم ربط وسطه بدوبارة ، وتناول حذاء قديماً من تحت رأسه .. وانتعله ، ثم أسرع الخطا إلى مقهى المعلم درديرى حيث غسل وجهه ومشط شعره .

وفى الطريق إلى بيت رضوان افندى كان يحس اللهفات تضطرب فى صدره كالأبخرة الحبيسة فينتابه توتر العـــاشق الذى يسعى للقاء محبوبته .

وما كاد يدخل البيت ،حتى راح يصعد السلم بخفة وسرعة وفى الدور الثالث توقف عند شقة رضوان افندى ، وتريث برهة حتى انتظمت أنفاسه ثم رفع قبضة يده ودق الباب ثلاث دقات متتابعة خافتة ومنغمة .. ثم أعقبها بأخرى .

وكان يدق الباب وقد ركز إحساسه فى قبضة يده وفى أذنيه حتى يضبط الإيقاع ، فلا يعلو إلى حد الإزعاج ولا يخفت إلى حد عدم سماعه ، وقد التزم زغلول الحرص فلم تفلت منه دقة واحدة نابية .. وكأنه كان يخشى أن يحدث جلبة قد تزعج شيئاً غاية فى الرقة والشفافية يتحرك خلف الباب ! ! .. فكانت الدقات تسمع فى سكون الفجر كأنها نداء غامض يعلن عن رغبة طال الحنين إليها .

وظل زغلول يرسل دقاته إلى أن سمع (صوتاً نسوياً يقول) :

— طيب يا زغلول .

وأمسك زغلول يده عن الطرق ووضعها فى جيبه ليدفئها

وظل واقفاً فى مكانه وقد مال بجذعه إلى الأمام وأرهف أذنيه علـّه يسمع صوت الشبشب يزحف على بلاط الصالة .

وكان الضوء الخافت الناعم — المنبعث من شراعة الباب — يضيء وجهه الشاحب ، كاشفاً ما ارتسم عليه من علامات اللهفة والترقب ... وبدا زغلول فى ذلك اللحظة كمخلوق غريب كلف بالتقاط كلمة .. لو قيلت لغيرت مصير العالم !

ولما أحس أن انتظاره قد طال — والواقع أنه لم يمض أكثر من دقيقة — عاد يدق الباب من جديد مرسلاً دقاته الرتيبة المنغومة وفى هذه المرة أيضاً جاء صوت تخالطه آثار النعاس .. ولكنه لرجل .

— خلاص يا زغلول .. اذهب أنت .

ورغم أن المهمة قد انتهت واستيقظ رضوان افنـــدى ليذهب إلى عمله إلا أن « زغلول » لم يرحل ، وبقى مثبتاً فى مكانه كمن ينتظر شيئاً .

وساد الصمت لحظة إلى أن قطعه زغلول بالدق على الباب من جديد !

وأسكته صوت للرجل المدهوش من الداخل « الله ! !..

أنت لم تنصرف يا زغلول ؟.. قلت لك اذهب .. فأنا صحيت»

وصمت زغلول مرة أخرى . ثم همّ بالانصراف وهو يشعر بالأسى وخيبة الأمل ؛ ولكنه ما كاد يهبط درجة واحدة حتى توقف وبدا عليه التردد .. فثمة رغبة لم تشبع ، واللهفات التى كان يحسها وهو فى الطريق ، زادتها الخيبة تأججاً وتوتراً ... وتكلمت فى سريرته الأمنية الغالية آه لوكان باستطاعتى أن أرى الشقة كلها ...

وفجأة استدار إلى الباب وراح يدق دقات عالية متتابعة وأسكته صوت المرأة وهى تقول بحزم طيب .. ثم سمع صوت المزلاج وهو يفتح ، فوقف وقد ساد مشاعره القلق والتطلع

وما كاد الباب ينفتح حتى انطلقت عيناه إلى الداخل تتحسسان كل شىء ... حيث الكرسى المذهب والمائدة الصغيرة والصورة المعلقة والصوان البنى ، ثم ارتد بعينيه إلى المرأة الواقفة فى فرجة الباب وتمتم « صبـــاح الخير ياست ... ثم استطرد مردداً الكلمات التى اعتاد أن يبرر بها تلكوءه عند الباب كل صباح « رضوان افندى .. صحا ؟ كنت خائفاً أن يعود فينام مرة أخرى بعد انصرافى .. ويتأخر عن عمله ... » وردت المرأة وهى تخفى نفاد صبرها متشكرين ياسيدى .. فقد استيقظ تماماً .. »

وتنبهت خياشم زغلول إلى بقايا العطر المنتشر فى موجة الدفء المنبعث من داخل الشقة ــ الدفء الذى ما كاد زغلول

يشعر به حتى تراخت أعصابه ، وأخذ يستزيد نفسه إحساساً به ، وخيل إليه أن مسامه تتفتح لتتشربه كل خلية من خلايا بدنه .. واستكان استكانة الطفل فى حضن أمه الحنون .

ونظرت إليه المرأة وهى ممسكة بالباب تحركه ، مظهرة رغبتها فى إغلاقه ، ونظراتهـا المتسائلة تجول فى وجهـه المأخوذ بحلمه السعيد .. وتنبهت على صوت زوجها يناديها فأسرعت إلى الداخل ملبية النداء ، وتركت الباب مفتوحاً .. باب الجنة التى يحلم بها زغلول ليل نهار .

وغابت لحظة ثم عادت وعندما لم تجد « زغلول » أغلقت الباب ثم استدارت إلى الداخل ولاحظت مستغربة أن باب إحدى الحجرات مفتوحاً وما كادت تهم بإغلاقه حتى توقفت يدها على مقبض الباب فقد فوجئت به واقفاً فى وسط الحجرة يتفحص كل شىء بنظرات مبهورة .. كأنه رحالة ألقت به المقادير إلى قصر أسطورى فأخذت بلبه العجائب والتهاويل والزينات ! !

وتوقفت المرأة عند الباب مدهوشة خائفة .. وعندما استدار ولمحها رفت على شفتيه ابتسامة شاحبة مستخذية .. وأراد أن يفتح فمه ليتكلم ، لكنه اكتشف أن ليس عنده مايقوله ، فاكتفى بالبسمة الخجولة والنظرة المتوددةالمستغفرة وهزَّ يديه ، وجالت عيناه فى جوانب الحجرة مرة أخرى فبدأ غريبا وساذجاً .. وعندما ارتد ببصره إلى المرأة لمح فى

عينها نظرة تدينه .. والوجه الجميل بدا مستنكراً متفززاً .. فأدرك أن ثمة جريمة ، وأنه هو المجرم .

وسألته المرأة بلهجة غاضبة: « ماذا تفعل هنا يازغلول؟»

وفاجأه السؤال وأربكه .. بل ورده إلى نفسه وإلى واقعه وإلى غرابة فعلته .. فانكمشت أحلامه الوردية وتخلت عنه الأحاسيس البريئة ، وتولاه الإحساس بالخطيئة والخجل ، فانقلب مخلوقاً تعساً مرتبكاً .. وود لو استطاع أن ينكمش حتى يتلاشى من أمام هاتين المقلتين اللتين ترقبانه بغضب واستنكار وغامت الدنيا فى عينيه وأراد أن يقول شيئاً فراح يحرك لسانه الجاف بصعوبة وقال وهو يتعذب :

« لا مؤاخذة ياست .. أصلى .. أصلى أنا » وقاطعته المرأة قائلة بغضب وحزم :

ــ اخرج .. اخرج حالاً .. ولا ترينا وجهك بعد الآن

وكانت عبارة « اخرج » هى مفتاح المشكلة بالنسبة له ... فهو لم يكد يسمعها تخرج من فم المرأة ، حتى اندفع مارقاً من الباب ، ولم يبال فى اندفاعه بالصدمة العنيفة التى اصطدمت فيها كتفه بضلفة الباب .

ولم يشعر بشىء إلا عندما صدمه الهواء البارد عند باب البيت ، وطرفت عيناه فى ضوء النهار الوليد ... وألقى نظرة غير واعية على الشارع الذى بدأت الحياة تدب فى أرجائه .

وسار زغلول ــ الغلام ابن السادسة عشرة ــ وقدماه

تزحفان على الأرض زحف العجوز المتهالك فكأنما هو مجلود مائة جلدة على باطن قدميه ... ومرارة آدم يوم طرد من الجنة لا يعلمها اليوم أحد ، ولكنها بلا شك لم تكن أكثر من المرارة التي يحسها زغلول الآن .

وقادته قدماه إلى المقهى وهناك اختار لنفسه ركناً منزوياً وجلس منكمشاً على نفسه .. وعيناه السوداوان تائهتان متعبتان ، كأنما قد أضناهما البحث عن حلم ضائع .

وعندما ارتفعت الشمس في السماء بعد ساعة غادر المقهى وأنفق سحابة يومه هائماً مكدر النفس ، ينتقل من رصيف إلى رصيف ومن ركن إلى ركن ، وما وافى المساء حتى كانت قد عقدت جلسة لمحاكمته ... قضاتها رضوان افندي ، والمعلم درديرى صاحب المقهى ، والمعلم مهران صاحب عربات الكارو .

وجيء بزغلول يقوده ابن المعلم درديرى وشاب آخر من رواد المقهى .. وما كاد هذا الركب يهل على المجلس حتى أبعد رضوان افندى مبسم الشيشة عن فمه ، وصفق طالباً القهوة لنفسه وللجدعان .

وأجلسوا «زغلول» على كرسى بجوار المعلم درديرى ... وبعد الصلاة على النبي والاستيعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومن أولاد الحرام ، بدأ المعلم مهران الحديث :

— قل لى يا زغلول .. لماذا دخلت بيت رضوان افندى هذا الصباح .. ماذا كنت تريد ؟

وجزع الغلام لهذا السؤال ولم يحر جواباً فحنى رأسه وقد شحب وجهه .

وعنّ للمعلم درديرى أن يساعده على النطق ، ففعل على طريقته الخاصة بأن لكزه فى جنبه وهو يقول :

— تكلم يا ولد ...

ومع أن الزغدة كادت أن تتوقعه من فوق الكرسى ، إلا أنه لم يتكلم .. وظل معتصماً بالصمت المنيع .

ونظر إليه رضوان افندى وقال برفق :

— اسمع يا زغلول .. أنا والله العظيم لن أوذيك .. إذا قلت لى الحقيقة .. أنا فقط أريد أن أعرف .. ماذا كنت تنوى عندما دخلت بيتى ؟ .. هل كان فى نيتك أن تختبئ فى الدولاب أو تحت السرير مثلاً .. إلى أن أخرج من البيت ؟ وياترى هل أنت فعلت ذلك من نفسك .. أم أن هناك من حرضك ؟

وقال الحاج مهران وهو يميل ناحية زغلول :

— أجل ... إذا كان هناك من حرضك يا بنى ... قل لنا عليه ... ولا شأن لك بالباقى .

وللمرة الثانية يتدخل المعلم درديرى فى الحديث ... فقال ويده تندفع فى جنب زغلول :

— تكلم يا بنى ... فخير لك أن تتكلم .

وعندما أحس زغلول بهذه الشبكة التى تحاك حوله من

سوء الظن والاتهامات ... انتفض واقفاً وقد عراه الشحوب ، وتقلصت عضلات وجهه ... وراح يصرخ بأعلى صوته كالملسوع :

— أنا لست لصاً ... أنا لست لصاً .

وأسكتته الصفعات .

ثم اقترب منه المعلم مهران ، ودفعه فى صدره دفعة أعادته إلى مكانه على الكرسى .

ونظر إليه رضوان افندى وسأله بنبرات متأنية ساخرة :

— وما دمت لست لصاً ... فلماذا دخلت بيتى ... وماذا كنت تريد ؟

ولم يعن زغلول بالتفكير فى الرد عن السؤال ، بل وضع كل همه فى مراقبة المعلم درديرى ... وتلصصت نظراته إلى قبضة يده المعروقة الجافة، وارتجف عندما رآها تتحرك ... واختلجت عضلات جنبه ترقباً للزغدة ، فقال فجأة ليدرأ عن نفسه الضربة المرتقبة :

— أنا ... أصلى ... كنت أريد أن أتفرج ! !

وهنا أفلت زمام الجميع ، وتحركت الأيدى تضربه وتصفعه بغير حساب ، حتى رضوان افندى — الذى كان حتى هذه اللحظة جالساً فى أبهة ووقار — أسهم فى الأمر ببعض اللكمات ، ثم جذبه من ملابسه وأخرجه من وسط الرجال قائلاً وهو يغرز نظراته الحادة فى وجهه: «تتفرج ؟ ! ! .. ما شاء الله ... هل قالوا لك إن فى بيتى « سيرك » .. أو إنى أنا قراقوز ... وزوجتى بهلوانة ؟ ... اذهب ... » ثم دفعه

دفعة أعادته من جديد إلى الجحيم ... إلى الأكف الثقيلة ... والشتائم والركلات .

وعندما اشتد عليه الألم وأوجعته الضربات ، صرخ كمن يستغيث « سأتكلم ... سأتكلم ... » وحينئذ كف الرجال أيديهم عنه ، وأجلسوه على الكرسى وهو ينتفض .

وأخرج زغلول طرف قميصه ، وأخذ يمسح الدم الذى سال من الخدوش التى فى وجهه ؛ وبينما قال له المعلم درديرى « أجل ... تكلم ... خير لك ... قل لنا لماذا .. ؟ هل كنت تنوى السرقة ؟ ... أم أن هناك من حرضك ؟ » .

واستمع زغلول هذه الكلمات ثم أطرق مفكراً فى السبب ... وتماوجت فى خيالاته الصور الحبيبة :

الشقة . . . والحجرة التى دخلها والكرسى المذهب ... والصورة المعلقة .. والصوان البنى – ولعب الأطفال .

وظل برهة يتأمل حلمه السعيد وخواطره البريئة ، وعزَّ عليه البوح بها للجمع المترصد بشفتيه فى انتظار الكلمات التى يفسر بها سر اقتحامه لبيت رضوان افندى فى هذا الصباح .

وهز رأسه كمن يقول « لا .. » وابتلع خواطره وغيب أحلامه ... غيبها فى أعماق نفسه كمن يغيب شرائط من الحرير الزاهى الألوان فى أعماق جب سحيق . . . ثم رفع رأسه ، ونظر إلى الجميع نظرة طويلة خاوية .

وأطبق فمه ولم يتكلم ... فلم يكن عنده ما يقال سوى الحقيقة والحقيقة لا يصدقها أحد ! !

الطفل والدنيا

لم يستطع الغلام أن يحول عينيه عن القمر الذى كان يتوسط كبد السماء كقرص متوهج من الفضة فى ليلة من ليالى أبريل الدافئة .

وظل متكئاً إلى حجر أمه — الجالسة فى فناء الدار — والنور الفضى يترقرق فى عينيه السوداوين الحالمتين ... ومكث هكذا لحظات ثم حول أنظاره ، وراح يتأمل سعف النخيل العالى ، الذى بدا ثابتاً فى هدأة الريح ، لا يتحرك ولا يهتز ، كأنما هو مرسوم بإتقان على أديم السماء ، وتلمظت نفس الفتى شهوة إلى البلح المعلق فى سباطاته ، المتهدلة ثم غض الطرف يأسا من تحقيق أمنيته ، وراح يتلهى بمراقبة النعاج الراقدة فى أحد أركان الفناء ، تجتر ما عبأته فى جوفها من طعام .. ثم عاد يحدق فى القمر الساطع من جديد !

وظلت عيناه هائمتين هنا وهناك حول القمر .. وكأنهما تلاحقان أطيافاً تتلاعب وتجرى ، وتمثل ملهاة ابتهج لها قلب الصبى ، فراح يرقبها بشغف واهتمام .

وفجأة لمس ذراع أمه وتكلم بصوت عال ، كأنما هو يناديها من بعيد .

– أماه .. تعرفين عندما أكبر وأصير مثل أبى . .
وأفاقت أمه من شرودها ونظرت إليه وهى تسأله بفتور
– هيه يا حامد .. ماذا تنوى أن تفعل عندما تصير مثل أبيك ؟
فأجاب باهتمام وجد :
– سأصعد إلى القمر !
وانداحت فى نفس الأم موجة من الحنان والسرور ، فأكبت على وليدها تسأله ، وعلى شفتيها ترقص ابتسامة مشفقة :
– وكيف ستصعد إلى القمر ياحامد ؟
– سأذهب إلى الجبل أولاً .. وأنتظر فوقه حتى يقترب القمر فأتعلق فيه ..
وأطلقت المرأة ضحكة صافية ، وهى تراقب ما ارتسم على وجه حامد من جد واهتمام ثم سألته :
– طيب .. وماذا تنوى أن تفعل عندما تصعد إلى القمر ؟
وهنا اعتدل الغلام وانطلق يقول وهو ينقل عينيه بين القمر وأمه :
– يقولون إن فى القمر كثيراً من الأشياء الحلوة .. فيه بحور من العسل .. وبحور من اللبن .. والأرض هناك من الذهب ، ويزرعونها أشجاراً من الحلوى .. ويقولون إن العرائس والدمى هناك تتكلم وتمشى ، وتلعب مع الأطفال فى





الشوارع ... والقصور التى فى القمر حجارتها من البللور .. والشاطر حسن وست الحسن والجمال يسكنان هناك .. ولكن الغول ليس هناك .. وأنا غداً عندما أكبر وأصير مثل أبى..

وقاطعته أمه وهى تضحك وتربت على كتفه فى حنان :

— اسكت يا ولدى .. الله ينجيك من شر الغد ! !

ثم وضعت يدها على رأسه ، وضغطت عليه برفق وهى تقول « نم ياحامد .. نم فقد سهرت كثيراً »

ولكن الصبى قاوم ضغط يدها وهو يقول :

— ألا ننام فى الداخل .. إلى متى سنظل منتظرين أبى .. لماذا تأخر ؟

— سيأتى حالاً ..

— يأتى من أين .. أين ذهب؟

فعادت المرأة تضغط على رأسه وهى تقول : « وماشأنك.. نم وكفى .. » ثم تناولت وشاحها من فوق رأسها ، وغطته به جيداً رغم أن الليلة كانت دافئة .

وقبل أن يستسلم الصبى للنعاس أدار عينيه ، وألقى نظرة إلى القمر الفضى .. ثم أسبل جفنيه واستبقى الصورة فى خياله.. وراح فى النوم .

وبعد ساعة هبَّ من نومه على رصاصات جاءت تولول من بعيد عبر الحقول .. وأحس بيد أمه تحتضنه وقد اعترتها رجفة .. جعلته يرفع عينيه إلى وجهها مستفسراً ، وعندما

رأى القلق بادياً عليها سألها : « أنت خائفة من ضرب النار ؟ .. إنه بعيد .. »

وردت أمه وهى تهزه بانفعال « يوه ! ! إنت صحيت؟ نم يا أخى .. »

ولكن حامد لم ينم ، فقد استهواه الليل والقمر وبحور العسل وأشجار الحلوى.. وقصور البللور ، حيث العرائس والدمى .. وست الحسن والجمال .

وأيقظه من أحلامه صوت أقدام تقترب ، فأدار عنقه ناحية المدخل ، فرأى أباه مقبلاً على مهل .. يجر قدميه جراً وقد أمسك بندقيته فى يده اليسرى ، المدلاة إلى جانبه فى استرخاء ، أما اليد اليمنى فقد كانت غارقة فى الدماء ! !

وأحس حامد بأمه تنتفض وتزيح رأسه عن حجرها وهى تقول جزعة :

— ماذا جرى يامهران .. جرحت ؟

ونهضت مهرولة إلى زوجها الذى قال يطمئنها :

— لا إنه جرح صغير .. الرصاصة مرت فوق الجلد .. وتركت خدشاً بسيطاً ..

وراحت المرأة تتفحص الجلباب الغارق فى الدم بعينيها ويديها .. « تعال أغسل لك الجرح .. تعال إلى الداخل .. »

ثم أمسكت حامد من يده عندما رأته يحدق فى الدماء ، وقادته إلى فراشه .. وبعد ذلك عادت لتغسل الجرح .

وظل حامد مستيقظاً يستمع إلى الحديث الدائر بين أمه وأبيه فى الخارج .. وقد سمع فى تلك الليلة ما أزعجه .. سمع أباه يقول متأففاً :

— لعن الله القمر ! ! فهو السبب .. لو لم يكن مضيئاً لما رآنا الحراس وضربونا بالنار ..

واضطرب الصبى بعد أن سمع تلك اللعنة التى صبها أبوه على القمر ، ولم يستطع أن يفهم لماذا هو غاضب على أرض المباهج والعسل واللبن والحلوى .

وسمع أمه تقول لأبيه :

— لو كنتم خرجتم فى آخر الشهر .. فى ليلة من الليالى التى ليس فيها قمر .. ألم يكن ذلك أفضل لكم ؟

وأجاب الرجل متضجراً :

— وماذا نفعل .. وللضرورة أحكام !

وظل حامد ساعة ، يفكر فيما سمع .. وفى النهاية نام ، وفى نفسه هزات من القلق لسماعه تلك اللعنة التى صبها أبوه على القمر الجميل .

وعندما استيقظ فى الصباح كان قد نسى أحلام الأمس وسعى إلى أمه التى كانت تطبخ للإفطار طعام (السخينة) وجلس على مقربة من الكانون ، يراقب مزيج العسل والدقيق والماء ، وهو يغلى على القدر النحاسى .. وكان أبوه ممدداً

بجوار الحائط ، ويده السليمة تحت رأسه ويده المصابة فوق صدره وقد لاذ بالصمت العميق .

ونظر حامد إلى أمه وإلى أبيه ، فوجد كلاً منهما منشغلاً عنه ، فأسند ظهره إلى الحائط ، ومد قدميه العاريتين فى الشمس ، وراح يتأملهما ويحركهما يميناً وشمالاً ، ثم عنّ له خاطر جعله يرفع رأسه وينادى أمه :

— أماه .. انظرى إلى الشمس !!

وسألته أمه دون أن تحول وجهها عن قدر الطعام :

— مالها الشمس ياحامد .. ماذا فعلت لك ؟

— لا شيء .. إنها جميلة .. لماذا يا أماه عندما تطلع الشمس تجعل الدنيا ملونة .. والشجر يصبح أخضر .. والبلح يصير أحمر وأصفر .. لماذا يا أماه .. هه ؟

ولم تجب أمه ، وإنما أجاب أبوه إجابة حيَّرت الصبى .. فقد قال ورنة الغضب تشيع فى نبرات صوته :

— لعن الله الشمس .. إنها تؤلم جرحى .. ولعن أيضاً النهار .. إنه يعطل رزقى !!

قال ذلك ثم غادر مكانه ساخطاً .. وراقب حامد أباه وهو يدلف إلى الداخل .. وبعد أن غاب عن عينيه استدار إلى أمه ليسألها عن سر غضب أبيه ، ولكنها فاجأته بأن وضعت بين يديه طبقاً مليئاً بطعام « السخينة » فأكب على الطعام وقد نسى ماحدث .

وحملت أمه وعاء آخر وذهبت به إلى زوجها فى الداخل

وبعد أن أكل حامد وشبع ، قام إلى اللعب .. وجمع حفنة من الحجارة البيضاء والحمراء ، وظل يلهو بها إلى أن طرأ على فكره ما جعله يلقى الحجارة من يده ، ويسعى إلى أمه التى كانت جالسة بجوار الزير تغسل الأوعية ، فجلس قبالتها وظل يتفرج عليها لحظة إلى أن قالت له أمه :

ــ لم تجلس هكذا ؟ .. اذهب إلى اللعب ...

حينئذ زحف مقترباً منها وقال :

ــ تعرفين يا أماه .. غداً عندما أكبر وأصير مثل أبى ..

وتبسمت أمه وهى تستعيد فى خيالها ذكرى حديثه بالأمس :

ــ هيه .. بماذا تنوى أن تخرف ؟

فاستطرد وهو يلوح بيديه فى حماس شديد :

ــ أنا غدا سأرتدى حلة صفراء ... وسأضع على رأسى طربوشاً أحمر ... وأمسك بندقية ... كالعساكر الذين أراهم فى المركز يوم السوق ، وهم على ظهور الخيل يتبخترون بها فى الشوارع ... والناس تخافهم وتفسح لهم الطريق ... إنهم يقدرون على عمل كل شىء ... وأنا غداً .

وقاطعته أمه وهى تبتسم فى إشفاق :

ــ اسكت يا حامد ... ينجيك الله من شر الغد ! !

ولم تكد تتم عبارتها حتى سمعت طرقاً شديداً على باب

الدار ، مصحوباً بلغط وضوضاء ... وسمعت أصواتاً تنادى آمرة « افتحوا . . . » فانتفضت واقفة وقد علا الشحوب محياها وغشيها الاضطراب ، واندفعت إلى الداخل حيث ينام زوجها ... وقبل أن تصل إلى باب الحجرة ، كان الباب قد كسر ، وألقى على الأرض ، وظهر فوقه جندى يلبس بدلة صفراء ، وعلى رأسه طربوش أحمر وفى يده بندقية ، وصاح بها آمراً « قفى لا تتحركى من مكانك ... » فتوقفت وقد جمد الدم فى عروقها .

ودخل الجندي ، ودخل وراءه جنود آخرون وبعض خفراء القرية ، وانتشروا فى الدار ، ينقبون فى كل ركن من أركانها ، وفى كل حجرة من حجراتها .

ووقف الضابط ومعه جنديان بجوار المرأة عند باب الحجرة ، فى انتظار ما يسفر عنه التفتيش .

وجاء حامد وقد ركبه الخوف وأمسك بيد أمه ، ووقف يقلب وجهه بين الرجال الغرباء المنتشرين فى أرجاء البيت .

وبعد قليل رأى أباه خارجاً ويداه مكبلتان بالحديد ... ومن خلفه جنديان يدفعانه إلى الأمام .

وقطّب الضابط جبينه ، وهو يتفرس فى وجه الرجل بنظرات حادة ، وكأنما يريد أن يثقبه . . . ثم سأل أحد الجنديين :

— ألم تجدوا شيئاً ؟

فأجابه جندى خرج لتوه من الداخل ، وهو يلوح ببندقية فى يده :

— وجدنا هذه يافندم ...

وعرف فيها حامد بندقية أبيه التى كان يعتز بها كثيراً ... وسمع الضابط يقول :

— خذوه إلى الخارج .

ودفع أحد الجنود بالرجل فى ظهره ، وساروا به إلى الخارج .

والتفت حامد إلى أمه ، فوجدها مستندة إلى الجدار وهى تنتفض من عنف البكاء ، فصرخ باكياً هو الآخر ... وأخذ ينظر فى أعقاب أبيه الذى تحوطه الجند ، وراحوا يدفعونه بقوة أمامهم ، ثم عاد ينظر إلى أمه وهو يقول :

— أتخافين من هؤلاء الناس ؟ ... أنا غداً عندما أكبر .

ولم تدعه أمه يتم حديثه ، إذ ضمته إليها وقالت وهى تتداعى إلى الأرض وتنتحب : « الله ينجيك من شر الغد يا ولدى » .



مشروع زواج

رفعت زينب رأسها عن الكتاب عندما سمعت دقات على باب شقتها ، وألقت نظرة سريعة على ساعتها الملقاة بين كراساتها . فوجدتها تشير إلى السابعة وحدثت نفسها « هذا موعده ..... ؟ ثم غلبها الهم فبقيت فى مكانها لا تبرحه ، ولم تتحرك إلا عندما سمعت صوت أقدام أمها وهى تجتاز الصالة ، فقامت إلى باب حجرتها ووقفت خلفه مرهفة السمع ، وعندما بلغها صوت أمها يرحب بالقادم . أهلاً يا أستاذ منصور أطلقت زفرة ضيق وكرت عائدة إلى مكتبها ، ودست رأسها فى الكتاب المفتوح وتشبثت عيناها بأول كلمة وقعت تحتها ، وظلت هكذا جامدة فى مكانها كأنما استلب وعيها ساحر أريب فنامت وعيناها مفتوحتان ..

وأعادها إلى وعيها صوت أمها :

— زينب ... تعالى واصنعى القهوة للأستاذ منصور قالت ذلك وهى تمد يدها لإغلاق الكتاب ولكن زينب تشبثت به .

— دعينى أستذكر دروسى فعلىّ واجبات كثيرة ..

— فى الوقت متسع للمذاكرة .. قومى الآن .

– لم يبق على الامتحان سوى بضعة أسابيع .. ولا أريد أن أضيع وقتى .

واغتاظت المرأة لعناد ابنتها فوضعت يديها فى خصرها وجمعت إرادتها فى تكشيرة عميقة وقالت آمرة :

– أقول لك انهضى ... أم أنادى أباك ليريك كيف يكون العناد وقلة الأدب ..

وأدركت زينب أن لا فائدة ، فانتفضت واقفة وهبدت الكتاب فوق صف من الكتب .. ثم غادرت الحجرة وأمها من خلفها .

أعدت زينب القهوة ثم حملت الصينية وغادرت المطبخ ، وسارت إلى حيث الضيف وأبوها وأمها ، وما أن دخلت عليهم حتى تلقفها منصور فى عينيه وامتلأ وجهه بابتسامة لم ترها لأنها لم تنظر إليه .

وبعد أن قدمت القهوة همت بالتراجع فأمسكها صوت أبيها

– صافحى الأستاذ منصور واجلسى معنا قليلاً .

وأطاعت على مضض فتقدمت من الأستاذ منصور وصافحته ثم تخيرت لنفسها مقعداً قريباً من الباب وجلست مطأطئة الرأس ، حينئذ تراخى منصور فى جلسته ومال إلى الوراء بعد أن شدد على رقبته النكير بأن أحكم عقدة (الكرافت) وضيقها ، ثم أخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة .

بقيت زينب مكبوحة إلى مقعدها ضائقة ، تفكر فى هذا

المنغص الجديد الذى طرأ على حياتهـــا منذ عدة أسابيع جاء منصور إلى البيت بصحبة أبيها ، ومن يومها لم تنقطع زياراته وكلما جاء أحاطه والداها بفيض من الترحاب لم يغب عنها مغزاه

وعنّ لها أن تنظر إليه فهى لم تتفرس فى وجهه من قبل فرفعت رأسها ثم غضت الطرف — فجأة — على مجموعة متنافرة من الملابس ودارت فى خاطرها كلمة (سمج) فقد كان شعره الغارق فى الدهان يضوى فوق رأسه الضخم .. وأنفه الصغير يثير الغيظ وسط وجهه المنتفخ وعيناه بليدتان ، وعنقه غليظ قصير تتشبث به كرافت حمراء تستصرخ الأذواق بلونها الفاقع لتخليصها من صحبة البدلة الخضراء . ومن بين فتحتى الجاكت يبرز كرش ، وهو وإن لم يكن شديد الانبعاج إلا أن الدلائل تبشر بمستقبل باهر فى عالم الكروش .. وينتهى هذا الفحل بحذاء ضخم بنى اللون ؟

وتنحنح ممدوح افندى قبل أن يسأل ابنته بلهجة تصنع فيها الاتزان والتؤدة .

— هل تذاكرين جيداً يا زينب .. أليست هنـــاك مادة صعبة عليك ؟ فأجابت باقتضاب .

— الجبر ...

وكان منصور قد هم بأن يقول شيئاً عندما لفظت زينب كلمة (الجبر) فارتد على أعقابه مغيظاً وهو يســـأل نفسه « ماذا يكون هذا الجبر اللعين ..؟ »

وحاول أن يتصور ماذا يمكن أن يكون .. ملكاً .. ؟ أم قائداً ؟ .. أم فيلسوفاً ..؟ ولكنه سرعان ما استبعد هذا الخاطر ، فقد تذكر أنه سمع عن الجبر لأول مرة من أحد رفاقه الذين دخلوا الثانوى .. أما هو فما كاد يحصل على الابتدائية – بعد جهاد – حتى قنع بها ولم يطلب مزيداً من الشهادات ، وبقى إلى جوار والده الحاج شحاته تاجر المواشى سعيداً بانعتاقه من عناء الدراسة ، ومن يومها وهو ينمو ويسمن فى النعيم .

وحك منصور جبينه وهو يستعيد ذكرى ذلك اليوم، يوم أن جاءه زميله طالب الثانوى وفتح تحت عينيه كراسة وهو يقول مباهيا : « انظر ... أتستطيع أن تقرأ هذا ؟ .. »

أجل هذا هو الجبر مجموعة من الحروف والأرقام لا يعرف لها فائدة ... وأغاظه جهله فأراد أن يتراجع عن الحديث لولا أن تغلب عليه طبعه الحرون فاندفع قائلاً :

– وهذا الجبر ... لم لا تأخذين درساً خاصاً ..؟

ولم تحر جواباً فاكتفت بأن هزت كتفيها وثنت عنقها ... وواصل هو حديثه ناظراً إلى ممدوح افندى .

– أعرف مدرساً وأستطيع أن أجعله يأتى لإعطائها درسا خاصا ...

وضحك ممدوح افندى وهو يقول متظاهرا بالتمنع .

– لا يا أستاذ منصور ... إنك تتعب نفسك كثيراً من أجلنا ...

وتصنع منصور الغضب وهو يقول :

– أتعب نفسي ؟... أنت تهينني بهذا الكلام يا ممدوح افندي ... زينب أختي وأنت أبي وأمرها يهمني كثيرا ..

وعنّ لزينب أن تنظر إليه لترى كيف يكون وجهه وهو يقول هذا الكلام ، ولاحظ هو ذلك فقابل نظرتها مبتسماً ، وأراد أن يضمن نظرته إليها معنى الحنان ، لكن كانت له عين عصية على التعبير فلم يزد على أن اكتسبت عيناه بريقاً همجيا جعلها ترد الطرف وهي نافرة ، ولم يكن منصور ممن يلحظون مثل هذه المشاعر ، لذا فقد اندفع موجهاً الحديث إليها مباشرة .

– ما رأيك يا زينب ... أتوافقين ؟ .. سأكلمه غداً .

وأحست زينب بالضيق يطبق عليها ككفي مارد تطبقان على عصفورة ، فرفعت عينيها إلى أبيها تستجديه العـــون ، فوجدته منشغلاً عنها بالنظر إلى منصور نظرة ود وإعجاب .

وعاد منصور إلى الحديث .

– سأحضره معي غداً ... أو بعد غد ... ما رأيك ؟

وكان أن ردت في جفوة لم يكن يتوقعها أحد :

– لم أقل إني في حاجة إلى دروس أو مدرسين .

ثم هبت واقفة وغادرت الحجرة ، وتركتهم مبهوتين ؟

وبعد لأى تكلمت أمها فقالت وهى تضحك ضحكة أرادت بها أن تمحو جو التوتر الذى سادهم جميعاً .

– لا مؤاخذة يا منصور افندى ... زينب بنت خجول . خجول جداً . . . ولا تنس أن السهر والمذاكرة قد أتعبا أعصابها .

ولكن منصور لم يسمع شيئاً من اعتذارها فقد كان منشغلاً بصورة زينب كما رآها قبل أن تبرح الحجرة ، وتلمظت خيالاته وهى مثبتة على فستانها الوردى اللاصق على خصرها النحيل ، ورد فيها المستديرين استدارة غضة فتية ... وناجى نفسه « بنيه حلوة » .. ولو أنها ليست سمينة كما يجب ... لا بأس . هذا شيء يمكن علاجه بالغذاء الدسم والراحة بعد الزواج ... ولملم ممدوح افندى مسبحته فى راحة يده وتظاهر بالنهوض « هيه ... » ثم توقف كما لو كان قد طرأ عليه خاطر ما رده عن ذلك ، ورمق زوجته بنظرة ذات مغزى فتململت على الأثر وهبت واقفة ومضت فى أثر ابنتها وهى تعد لها كلمات التوبيخ .

ومشت رأساً إلى حجرة ابنتها ، وعندما اقتحمتها وجدت زينب جالسة إلى مكتبها الصغير تتشاغل بتصفح كتاب ضخم ، فوقفت قبالها صامتة .

ورفعت زينب رأسها ورمقت أمها بنظرة جامدة ، ثم ردت الطرف وأخذت تقلب صفحات الكتاب من جديد ،

ولاحظت المرأة شحوبها واضطراب أناملها فعدلت عن توبيخها وقالت لها ملاحظة تضع يدها على كتفها ... وتضاحكت كأنها تبدأ حديثاً فكها .

ــ زينب ... لماذا كنت جافة وأنت تردين على الأستاذ منصور .. ؟ لقد صدم المسكين ..

وبعنين زايلهما الجمود وحل فيهما الأسى ، رنت زينب إلى أمها وهمت بأن تقول شيئاً لولا أن استطردت أمها .

ــ لا تعامليه بخشونة .. ألا ترين كيف يحنو عليك .. إنه شاب طيب القلب .

ــ إنه جلف ...

قالتها زينب وفى نبرات صوتها فحيح النفس المقهورة التى اعتزمت أن تغضب علانية ... وواصلت كلامها بعد أن فتحت درج المكتب وأغلقته بعنف « من أين أتى أبى بهذا الـ ... الحيوان ؟ .. أنا لا أريد أن أرى وجهه البليد .. إنه ينظر إلى كما لو كنت عنزة من نوع جيد ونادر أليس أبوه تاجر مواشى ؟ .. حسناً . إنه يساومكم على البهيمة التى عندكم .. ثم انكفأت تبكى .

بهتت المرأة وأغاظها رأى ابنتها فى منصور .. ولم تتصور كيف يكون جلفاً وحيواناً بينما هديته ، قفص البرتقال الذى تحت السرير يؤكد رقة قلبه .. هذا غير صندوق الحلوى والخمسة جنيهات التى أقرضها لزوجها فى الشهر الماضى ؟

ودهشت لوجود فتاة ترفض منصور ، وأن تكون هذه الفتاة الحمقاء ابنتها هي بالذات ، فرجولته ورقة شمائله ، وفضائله العديدة التي تبلغ أربع عمارات وعدة آلاف من الجنيهات وبعض الأفدنة كلها مزايا تجعل من منصور عريساً ذهبياً تتمناه كل عاقلة لابنتها ، ولذا فقد نظرت المرأة إلى ابنتها المنكفئة تبكي ، كما لو كانت تنظر إلى تمثال مجسم للخيابة .

وانتظرت إلى أن انقطع نشيج زينب فاقتربت منها قائلة وكأن ماحدث لم يكن سوى فكاهة سمحة وانتهت « اغسلى وجهك وتعالى .. » قالت ذلك بصوت خافت ولكن بإصرار ثم غادرت الحجرة دون أن تهتم بسماع ردها .

وبقيت زينب بعد انصرافها تنظر فى ذهول ، وقد أصبح وجهها جامداً كوجه تمثال رخامى لايحمل سوى تعبير واحد ثابت لايتغير .

وأخيراً أفاق عقلها ، وقد تحركت فى عينيها الأحاسيس وفكرت فيما عساها أن تفعل ، وفى النهاية وجدت نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئاً ، فتمهلت إلى أن استجمعت ماتبدد من عزيمتها ثم نهضت متثاقلة . وسارت إليهم .

دخلت زينب حجرة الجلوس متمهلة ، وحالما رآها أبوها زايله القلق فخلع نعليه وتربع على الكنبة ، أمامنصور فأسند ظهره إلى الوراء وشد نفساً من سيجارته وهو يحس بغبطة بالغة .

ودار الحديث فاتراً ممطوطاً إلى أن قال منصور مخاطباً زينب :

– يجب أن تجتهدى يا زينب .. فلا يكفى أن تنجحى بل أريدك أن تكونى الأولى .. فرد أبوها وهو يضحك .

– الأولى .. دفعة واحدة ؟ .. إننا نريدها أن تنجح فقط لتنتهى ..

وهنا وجدت أم زينب الفرصة لتقول شيئاً تسترضى به « منصور » :

– لست أدرى ماذا يعلمونهن كل هذه السنين ؟.. إن ابنتى تجيد القراءة والكتابة منذ أمد بعيد .. ومع ذلك فهى كل يوم تذهب إلى المدرسة وفى حقيبتها زحام من الكتب هذا أحمر وذاك أزرق ، والآخر أخضر .. ورغم هذا فلا يبدو أنها تعلمت شيئاً جديداً .. ليس أفضل للبنت من البيت أليس كذلك يا أستاذ منصور ؟

وأجاب منصور وهو يضع ساقاً على ساق ،

– طبعاً ...

ولم يسترح لهذه العبارة المقتضبة ، وشعر أنه من الواجب عليه أن يقول شيئاً أكثر من ذلك فاستطرد :

« وعلى كل حال .. العلم واسع » .. ولا يستطيع أحد أن يتعلم كل شىء فى خمس سنوات ... ولا حتى فى خمسمائة سنة ...

وغبط نفسه إذ وفق إلى هذه العبارات الأخيرة فراح يختلس النظر من زينب ليرى تأثير بلاغته فيها ، وعساه أن يحظى بنظرة إعجاب ، فوجدها تنظر إليه وعلى شفتيها شبه ابتسامة ؟ فاستطرد فى حماس : « العلم جميل .. رحم الله الأيام الخوالى أيام كان المرء يجد من وقته متسعاً للقراءة قبل أن تشغله متاعب الحيـــاة .. أنا شخصيا قرأت كثيراً فى كتب التاريخ .. ليس هناك أعظم من التاريخ ... لقد قرأت تاريخ أبى زيد الهلالى ، والأميرة ذات الهمة ، وحروب ملوك السند مع الهند ، وحرب عثمان بن عفان مع ملوك الجان وتواريخ كثيرة أنستنيها المشاغل ... لعن الله الدنيا ومشاغلها

وبعد أن سرد هذه القراءات .. نظر إلى زينب ، فرأى طيف الابتسامة ما زال يشاغل شفتيها ، فشجعه هذا على أن يسألها :

– هل قرأت تاريخ الأميرة ذات الهمة ؟

فأجابت وقد اتسعت ابتسامتها « لا ... » .

واغتبط منصور لأنها لم تقرأ مثلما قرأ فاندفع يقول :

– إنها امرأة شجاعة .. كانت تحارب الكفرة من ملوك الفرنجة والمجوس هى وأولاها السبعة الأبطال .. ويقال إنها عاشت خمسمائة سنة .. وماتت رغم ذلك شابة ؟

وكانت أم زينب تصغى معجبة بعلمه الغزير .. إلى أن سمعت قوله : « عاشت خمسمائة سنة وماتت رغم ذلك شابة »

حينئذ اهتز قلبها وأشرقت تجاعيد وجهها بأمل غامض .. أمل فى شباب قد يدوم بعد سن الخمسين أو الخمسمائة .. وانطلق لسانها يردد فى خشوع : « سبحانه قادر على كل شيء .. »

ومسَّ الإعجاب أيضاً قلب ممدوح افندي مما جعله يهز رأسه ويردد فى وقار « ما شاء الله .. ما شاء الله ؟ .. اللهم اوعدنا .. »

واستطرد منصور وقد استلذ وطابت نفسه بالحديث .. فسأل زينب مرة أخرى :

— هل قرأت تاريخ حروب عثمان بن عفان مع المجوس عبدة النار ؟

ومرة أخرى هزت زينب رأسها .

— لا ...

وابتسم منصور :

— إنها قصة كلها عبر لمن اعتبر ... عندما التقى الجيشان، استل سيدنا عثمان سيفه وزعق زعقة أماتت مائة ألف فارس من فرسان المجوس ... وقتل بسيفه مائة ألف أخرى .

وجذب من سيجارته نفساً عميقاً فى لذة فائقة :

— ويروى أنه أصيب فى ذراعه فى ذلك اليوم فتنهد تنهدة أطفأت نار المجوس الموقدة فى مدينتهم البعيدة ؟ ؟ .

وأحدثت هذه الروايات أثرها فى الحاضرين ، وسرت فيهم موجة من الانتعاش جعلتهم يحسون كأن ضغط الهواء قد

خف عن أبدانهم ، فأصبحوا يتحركون بيسر ويتكلمون بيسر ... وحلقت سحب الدخان المنبعث من السجائر فى سماء الغرفة . وأشرقت أسارير زينب هى الأخرى ... وإن كان الاستخفاف والسخرية هما ينبوع غبطتها .

وهنأ منصور نفسه عندما وجد الوجوه مستبشرة بحديثه، وانتابته موجة عنيفة من الثقة فنظر إلى زينب وقال بلهجة الناصح الحصيف :

— يجب أن تقرئى هذه الكتب يا زينب ... فهى نافعة جداً وكلها عبر وعظات .

ولم تتمالك زينب نفسها من الابتسام وهى تلفظ « صحيح ؟؟ ... » ثم انطلقت رغماً عنها ضحكة حبيسة فى صدرها . ووجد منصور نفسه يضحك هو الآخر مجاراة لها ورضى عن نفسه ... وتبسم ممدوح افندى وهو يهز رأسه هزات متتابعة فى وقار ، ودعت أمها فى سرها « ربنا يهديك يا بنتى ... » .

واستطرد منصور وهو لا يزال يضحك :

— أجل يا زينب ... اقرئيها ... فكلها عظات وفوائد ...

فردت عليه بسرعة وقد عبست قليلاً .

— كلها كلام فارغ .

وبوغت منصور بهذه الملاحظة فمال إلى الوراء وقد لكمته الدهشة ... وجمدت الابتسامات على الشفاه وسرت فى الجو

هزة خفية من القلق . وانتهزت زينب فترة الصمت التى أعقبت جملتها فاندفعت تسأله وقد مالت بجذعها إلى الأمام وجمدت تعابير وجهها وشحب لونه ، وأطبقت بيديها على ذراعى الكرسى .

— قل لى أنت أيها الفيلسوف . التاريخ الذى قرأته ... هل تعرف فى أى عام دمر المغول بغداد ؟ وأين كانت أميرتك ذات الهمة وفرسانها السبعة عندما دمروها ؟

قل لى لماذا يختلف الليل والنهار ؟ وما سر اختلاف فصول السنة ؟

أنت لا تعرف ... هه ؟ ... قل إنك لا تعرف .

وكانت تتكلم بسرعة وعصبية كأنما الكلمات طلقات تخرج من فوهة مدفع سريع الطلقات .. ولم تسكتها سوى صفعة على خدها وجهها إليها أبوها الذى زحف نحوها وقد تملكه الغضب ، ولما أخـــذت الصفعة حنت رأسها على صدرها واختبأ وجهها وراء خصلتين من شعرها تهدلتا على جانبيه ، ولم تراود مقلتيها دمعة واحدة ؟ .

وضربت أمها صدرها بيدها وهى تقول مستغربة : « ما هذا ؟ ما هذا .. هل جننت .. هل جننت يا زينب ؟ .

أما منصور فقد استرخى فى كرسيه كحيوان ضخم أسكتته الضربات المتلاحقة القوية وتركته هامداً بعد أن كان

يفيض بالحيوية والغرور . . وبدا كسير النفس وعيناه لا ترتفعان عن أرض الغرفة ، ولم يطل به المقام فما هى إلا لحظات حتى نهض واقفاً ، وقال فى صوت محتبس «أستأذن ...» ومشى إلى باب الحجرة وممدوح افندى من خلفه ، يلغو بكلام كثير محاولاً أن يلطف من وقع الصدمة ... ولم يسمع منصور كلمة واحدة مما قاله ممدوح .

تعاطف

فى ليلة قمرية من ليالى الصيف ، اتخذ الرفاق مجلسهم المألوف على شاطئ الترعة ، حيث اعتادوا قضاء السهرة تحت شجرة هناك . وحين أقبلت عليهم كانت الشلة بتمامها وتزيد رجلا غريباً لم أكن قد رأيته من قبل .

أثار هذا الرجل اهتمامى للوهلة الأولى .. كان ضامراً ضموراً غريباً كأنه توقف عن النمو فى سن العاشرة ، ضخم الرأس ، بارز عظام الوجنتين ، دميماً .. وليس فيه مايطيب للرائى سوى عينيه ، فهما مستديرتان ، بهيتان ، يترقرق فيهما بريق ذهبى أخاذ ، وتوحيان بأن وراءهما عالماً فسيحاً بعيد الأغوار ، على أن كلماته — وليس شكله — هى التى أبقت صورته فى ذاكرتى

شرع يتكلم بعد أن جلست ؛ ويبدو أنه كان يواصل حديثاً قطعه عليه مجيئى . قال موجها حديثه إلى مختار الجالس بجواره .

— أنت ترى هذا .. ولكنى لا أوافقك ..

وسكت هنيهة وأخذ يفرك كفيه ثم استطرد :

— الألم ؟! .. الألم فخر الإنسان .. هو تاج الشوك النبيل يتوج هامات البشر .. وهو أيضاً الينبوع لكل شعور رفيع إنه ينبوع الحب ، والمروءة ، والحنان ، والسرور .. إنه ينبوع السرور أيضاً .

ضحك مختار ضحكة خفيفة وقال معلقاً :

— آه . هذه النقطة الأخيرة لا أفهمها .. ولكن لا تنس أن الحيوانات تتألم .

ولم تكن تبدو عليه الرغبة الجادة فى هذا النقاش ، وأن ما قاله لم يكن أكثر من ملاحظة ، ومضت فى خياله فنطقها دون أن يهتم بسماع رد عليها ، ولعله قال ذلك لمجرد السخرية من صاحبه . بيد أن هذا اندفع متحمساً :

— أجل هذا صحيح .. ولكنها فى هذه الحالة تكون قد اقتربت خطوة من الإنسان .. لقد رأيت بعينى رأسى تعبيراً بشرياً عن الألم فى عيون بعض الحيوانات .. أتفهم ؟ تعبير بشرى .. رأيت ذلك مرة فى عينى جاموسة ! !

لفظ الكلمة الأخيرة بصوت خافت ، كأنه خاف أن يخدش أسماعنا . على أنه ما كاد يلفظها حتى دهمته موجة من الضحك والتعليقات وانتظر حتى صمتوا ، فعاد يقول رافعاً صوته عن ذى قبل :

— كانت متعبة ، بارزة العظام ، وبها جرح متقيح فى ظهرها .. ويبدو أنها كانت حديثة الولادة فضرعها المنتفخ

يشير إلى ذلك — ولعلهم ساقوا وليدها إلى المذبح ، فهــذا يحدث كثيراً كما تعلم .. وكانت تسير بين رجلين ، الأول يشدها ، والثانى يسوقها بعصا ويضربها .. ولكنها توقفت وأبت أن تسير ، رغم الضرب والشد ، والدفع ، وصيحات الغضب التى راح يطلقها الرجلان .. وحين اشتد عليها النكير أخذت تحرك عنقها يمنة ويسرة وهى تزفر وقد ترقرق فى عينيها تعبير حقيقى .. تعبير بشرى .. كان مزيجاً من الألم واليأس والحزن والملل .. تصور كل هذا يبدو فى عينى جاموسة فى لحظة ألم !

عاد الرجال إلى الضحك والصخب مرة أخرى ، وتخلى بعضهم عن واجب المجاملة للضيف ، فهجموا عليه يقرصونه بسخرياتهم .

قطب الرجل جبينه ، وأخذ ينقل عينيه فى الوجوه وقد ارتسم فيهما تعبير غامض .. وكنت أحسب أنه لن يعود إلى الكلام بعدما حدث . ولكنى رأيته ينظر إلىّ وعلى فمه ابتسامة هزيلة ثم شرع يخاطبنى ، قال دون أن تختلج نبرة فى صوته :

— إنهم لا يفهمون !! إن الناس لا يفهمون — وذلك ما يثير الخوف حقا — إن الأشياء النبيلة فى متناول أيديهم جميعا ، ولكنهم لا يتناولونها .. مثلهم كمثل الهمجى الذى يعيش فى مدخل منجم من مناجم الذهب ، ولا يفعل أكثر من أن يبول فيه ويتخذه حظيرة لمواشيه !!

وقطع هذا الحوار نداء حاد جاء من عرض الطريق « طحال عال » . حينئذ دب النشاط فى الحاضرين ، وتحسس البعض بطونهم ، وقام من بينهم من ينادى البائع ، وقد ألهاهم ذلك عن مناوشة الغريب والرد عليه .

كدّس البائع الخبز والطحال ، وشرائح الطماطم وقراطيس الملح ، على مائدة صغيرة فى الوسط . وإذ تم إعداد كل شيء أعلن أحدهم بدء العشاء قائلاً : « تفضلوا » .

وكان مثل هذا العشاء يجتذب عادة الكلاب الضالة من حولنا ؛ فما هى إلا لحظة حتى ظهرت طلائعهم .. جاء أولاً كلب ضخم ، أسود يتيه بقوته ، وتقدم من الآكلين بجسارة وثقة وبغتة قذفه أحدنا بحجر أصاب جنبه . زمجر الكلب ، وكشر لنا عن أنيابه ، ولكن حجراً آخر جعله يولى الأدبار جرى مسافة ثم استدار إلينا يرمقنا فى صمت كمخلوق يريد أن يفصح عن شيء .. وضحك الضيف قائلاً :

— إنه يشتمنا ..

وقوبلت هذه الملاحظة بالفكاهة والرضا .

لم تكف الكلاب عن ملاحقتنا ، ولم نكف نحن عن زجرها ورجمها . وكان من عادة الكلاب القوية أن تزمجر وتكشر عن أنيابها إذا أصابتها رمية حجر . أما الكلاب الضعيفة فكانت تصرخ وتصيء وتجرى مذعورة وذيلها منكمش بين رجليها الخلفيتين .

ويبدو أن الكلاب يئست منا فى النهـــاية ، فكان أن اختفت ، وإن ظل بعضها رابضاً على مبعدة يراوده الأمل دون أن يجسر على الاقتراب .

وظللتنا لحظة صمت لم يكن يسمع خلالها سوى أصوات المضغ ، والتمطق ، والبلع . ورأيت صديقنا الغريب يلتفت فجأة منادياً « تعال » وأشار بيده إلى شيء لم أتبينه فى أول الأمر .. وحين دققت النظر ، رأيت كلباً ضامراً بارز العظام

اقترب الكلب محاذراً وهو يطلع ويجر نصفه الخلفى كانت إحدى ساقيه الخلفيتين مكسورة – بينما راح صاحبنا يستحثه ويشجعه قائلاً : « تعال لا تخف .. تعال » وتلكأ الكلب عند ورقة قذرة بها آثار طعام ، وراح يلعقها بشغف ثم التهمها .. وضحك الضيف ملاحظاً :

– الفقر أيضاً يصيب الكلاب .

ثم عاد إلى الكلب يناديه ويقربه ، ويلقى إليه بقطع الخبز وأخذ الكلب يقترب حتى صار عند قدميه . وعندما همّ أحدهم بطرده نهاه عن ذلك ، فكان أن تركوه وقد أثار هذا العمل شيئاً من النفور فى نفوسهم . على أن الغريب لم يبال بأحد ، وظل يوالى الكلب بالفتات وهو يضحك راضياً . وانتهز فرصة مرور بائع الطحال مرة أخرى فاشترى بقرش وقدمه له

قطعـــة قطعة . وفى النهاية تمدد الكلب تحت الكرسى ونام مطمئنا .

وظل الرجل طوال السهرة يوليه عنايته ؛ فهو لا يفتأ يتلمسه بنظراته بين آن وآخر ويسأله ملاطفاً :

— مبسوط .. ؟

حينئذ يهز الكلب ذيله ويصىء معرباً عن عرفانه ورضاه .

وقد أثار هـــذا المسلك بعض البسمات والغمـــازت . وتفتحت شهية الجميع للسخرية ... همس الذى بجوارى :

— إنهما متشابهان تماماً كأنهما شقيقان .

وقال آخر :

— الطيور على أشكالها تقع .

ولكن « مختار » خاطب الضيف فى سخرية سافرة ، إذ كان يبدو أنهما صديقان ، وليس بينهما حرج . قال وهو يربت كتفه :

— بدأت الآن أومن بتناسخ الأرواح . . . لو كنت أعرف أنك ميت ، وقابلت هذا الحيوان فى الطريق ، لقلت فى نفسى إن روحك تقمصت هذا الكلب الناشف ، ولم يبد على الرجل الغضب لسماع هذا الكلام . بل شاركنا الضحك ، ثم انحنى ونظر إلى الكلب قائلاً :

— أتسمع ما يقولون ؟ ... لا تهتم لهذا النباح .

ثم رفع رأسه وقد تألقت عيناه بالغبطة ، وأشرقت على فمه ابتسامة صافية ، غلب صفاؤها على دمامة وجهه وقال :

– سيظلون دائماً على أعتاب المنجم دون أن يخطر ببالهم أن يتقدموا خطوة إلى الداخل .

وشغلتنا بعد ذلك أحاديث متباينة حتّى شارفت السهرة نهايتها ، وقام الضيف لينصرف .

وحين خطا أولى خطواته لاحظت أنه أعرج ... وإذ رآني أحدق في رجله المكسورة ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، ثم حيّا ومضى يظلع ، والكلب يظلع من ورائه .

الوهمُ الأخضرُ

كانا يسيران بخطوات منهوكة ، وأصابع أقدامهما تطل من خروق أحذيتهما كديدان صفراء ، قتلها لفح الهجير ، فتراخت مستسلمة للمصير المحتوم . وعند أول شجرة صادفتهما توقفا .. وأشار عبد المولى بيده فى تراخ وهو يقول: « هيا نسترح هنا يامبروك ... » وفى صمت سار الاثنان إلى حيث ألقيا بنفسيهما فى ظل الشجرة ، وتمدد عبدالمولى متخذاً من ذراعه وسادة بينما جلس مبروك القرفصاء وظهره مسنود إلى جذع الشجرة ، وعيناه تتفحصان المكان .. ويده تدعك ذقنه الذى لم يحلق منذ عدة أيام .. ولعق شفتيه ، فانتشر فى حلقه طعم التراب والعرق ، فعاد يستجمع ريقه ثم بصق على الأرض .

وأسند رأسه إلى الوراء، دون أن تطرف عيناه الضاويتان ومكث صامتاً لحظة ثم أدار رأسه ناحية عبد المولى وهو يقول:

— تعرف يا عبد المولى .. كنت أفكر .

فرد عليه هذا بفتور قائلاً :

— ولماذا تفكر ؟ .. عليك أن تستريح الآن ... ألم تتعب بعد ؟

فهز مبروك رأسه موافقاً :

— أجل ... فقد سرنا مسافة طويلة اليوم ... يا لأرض الله الواسعة ... ترى بعد كم يوم نصل القاهرة .

— لا أعرف ؟ ... وسيان عندى أن نصل بعد اليوم ... أو بعد أسبوع .. أو شهر ... أو حتى سنة .

وأصغى له مبروك ، وعيناه البراقتان تدوران فى جهات الفضاء ، وقد التمع فيهما وميض وقلق ... وبدا كمن يتوقع ظهور شىء غريب عند الأفق وحانت منه التفاتة إلى زميله فوجده يتلهى بمراقبة خنفساء تسير جاهدة فوق الحصى ، وقد انغرس فى ظهرها عود ثقاب ... فلكزه فى جنبه وهو يقول غاضباً أنت رجل صغير العقل يا عبد المولى ... إنك فى الخمسين ... ألم تقل لى إنك فى الخمسين ؟ ... حسناً لماذا إذن تتصرف كالأطفال ؟ .

وأغمض عبد المولى عينيه وهو يقول بفتور ، وعلى شفتيه طيف ابتسامة هزيلة : « كان منظرها مسلياً وهى تسير ، والعود مغروس فى ظهرها ... » .

وألقى مبروك الخنفساء ، بعيداً وهو يقول :

— أنت مجنون ... قل لى .. ماذا تنوى أن تفعل عندما نصل القاهرة ؟ .



فأجابه عبد المولى وهو يتمطى « أى شيء » ولوّح مبروك بيده فى الهواء ، كأنما لم تعجبه هذه الإجابة .

ثم استرخى قليلاً فى مجلسه وسرح بأنظاره إلى بعيد وهو يسأل دون أن ينظر إليه :

ـ هل لك حرفة معينة ؟ ... كنت نجاراً كما تعلم .. وكان عندى دكان كبير قبل الحرب .. قل لى إنك ماذا تنوى أن تصنع عندما تصل القاهرة .. ماهى حرفتك ؟

فرد عليه عبد المولى وهو يعبث بقشرة بطيخ جافة وجدها على الأرض :

ـ اشتغلت مرة حانوتيا .. ومرة خادماً فى مكتب ، ومرة جرسوناً .. إنى أفعل أى شيء .. وأظننى هذه المرة ، إما أن أتسول .. وإما أن أبيع الحلوى للأطفال وتبسم مبروك عند سماعه هذا الكلام ، ثم قال وقد شاعت المرارة فى نبرات صوته ، كأنما كلمة « أطفال » قد حركت فى نفسه ذكريات أليمة .

ـ أطفال ؟؟ وهل بقى فى القاهرة أطفال .. ترى ماذا فعلت بها قنابل الألمان .. ؟ وهل ستجدها كما تركتاها قبل المهاجرة .. يقولون الحرب انتهت وكسب الإنجليز .. وخسر الألمان ..

ثم تنهد قبل أن يستطرد « وخسرت أنا دكانى ... والأسوأ

من ذلك .. زوجتى وأولادى » . . . هل قلت لك ذلك من قبل ؟ .

ومع أن عبد المولى هزّ رأسه بالإيجاب إلا أن مبروك مضى فى حديثه يعيد على مسامع صاحبه ما قاله له عشرات المرات خلال رحلتهم الطويلة « كان عندى دكان فى أسفل البيت الذى أقطنه ... وليلتها كنت فى الخارج عندما بدأت الغارة ... وحين رجعت بعد انتهائها لم أجد شيئاً سوى كومة من الحجارة والأخشاب فرد عليه عبد المولى مواسياً :

— ما زلت شاباً على كل حال .. وفى مقدورك أن تصنع لنفسك دكاناً آخر .. وزوجة وأطفالاً .. أما أنا فقد انتهيت .

وأصغى له مبروك وهو يهز رأسه بانتظام ، ثم سأله فجأة : « قل لى يا عبد المولى .. ألم تتزوج قط ؟ » .

وعندما سمع عبد المولى هذا السؤال تحرك فى عينيه البليدتين إحساس وليد .. ظل ينمو ويتوهج بما ابتعثه فى نفسه من ذكريات :

كانت لى زوجة .. وكان لى ولدان .. ماتت الزوجة وتركت لى الولدين .

ثم حرك يده كمن يذرى شيئاً فى الهواء وهو يقول: «كان هذا منذ عشرين سنة ... » .

وعاد مبروك يسأله :

— وأين أولادك الآن ؟

— الأول كان فاسداً . . وراح يكسب عيشه بالسرقة والنشل .. ولم تجد معه النصيحة والضرب .. إلى أن جاء يوم وطردته من البيت ، ولم أره بعد ذلك .. كان يومها فى الثامنة عشرة من عمره .

قال عبد المولى ذلك ، ثم أغمض عينيه وصمت ، كأنما أرهقته الذكريات الأليمة .. ونظر نحوه مبروك ، وسأله برفق « والثانى » ؟ « فرد عليه باقتضاب » مات « فهز مبروك رأسه وتنهد قبل أن ينطلق فى الحديث « أما أنا فقد كان لى ثلاثة أطفال ... وزوجة فى الخامسة والعشرين .. وكان يحلو لها أن تعين وظائف أبنائها ،وكانت تقول لى عندما أعود إلى البيت : « يا مبروك يجب أن تعمل حساباً للغد وتدخر مالاً ينفع الأولاد فى المستقبل يجب أن نعلمهم حتى يدخلوا الجامعة .. فابنى مصطفى أريده أن يكون طبيباً ، وحسنية ستكون مدرسة أما هذا الكتكوت ... وتقبل أصغر أطفالها فإنه سيكون محامياً فهو كثير الصياح والضجيج منذ الآن وكنت أقول لها وهذه الأحلام ترقص فى قلبى : « أنت امرأة حمقاء ، فالمستقبل بيد الله ..» ثم تنهد بحرقة واستطرد .. وهكذا كنت أعيش نهارى فى العمل وأعيش ليلى فى أحلام المستقبل إلى أن كانت الليلة المشئومة .. وحوم الطيار الألمانى فوق بيتى وضغط على الزر فدمر فى لحظات ما أنفقت عمرى أبنيه مات أولادى وأم أولادى وبقيت أنا كالغراب التعس .. أعيش فى خرائب

أيامى الماضية » . قال ذلك ثم صمت ، وأسند رأسه إلى جذع الشجرة وعيناه تضويان فى وهج الغروب الأصفر .. كان نحيلاً طويلاً حادّ السمات ، تنسحب أرنبة أنفه إلى أسفل حتى تكاد تلامس شفتيه الرقيقتين الحمراوين ، وعيناه سوداوان تلتمع فى أعماقهما آلام حية .

أما عبد المولى فقد كانت عيناه رماديتين داكنتين ، فيهما ألم متجمد ويأس .. وهو كتلة بدينة قصيرة من اللحم يكسوه جلد أصفر .

وظل مبروك صامتاً ، ثم أطلق فجأة ضحكة قصيرة أعقبها بقوله :

— من يدرى .. ؟ .. ربما ألقاه يوما .

« من هو ؟ » « الطيار الألمانى الذى ألقى القنبلة على بيتى » ثم رفت على شفتيه بسمة ساخرة حزينة واستطرد :

— لعله يجىء يوما إلى القاهرة .. سائحاً .. وربما لقينى فى بعض شوارعها ، ووقف ليسألنى عن الطريق إنه ولا شك سيكون سيداً أنيقا مهذباً ؟ تطل من عينيه نظرة ودود كالتى نراها فى أعين السواح الأجانب وسوف أدله يومها على الطريق .. ولربما تحمست ، وسرت معه لأوصله إلى حيث يريد .. وسنفترق بعد ذلك ونحن نتصافح بحرارة كأننا صديقان قديمان هه ؟ ؟ ومن يدرى .. ربما أصر ساعتها على أن تؤخذ لنا صورة ويده فى يدى فيحملها معه إلى بلاده كذكرى لصداقتنا العابرة ..

وأنصت له عبد المولى صابراً ... ثم تنهد وتمطى وهو يقول : « أريد أن أنام .. فقد سرنا كثيراً اليوم .. وأمامنا سفر طويل غداً .. »

فقطّب مبروك جبينه وقال وهو يلوح بيده: « تنام الآن .. والشمس لم تغرب بعد ؟..دعنا نتحدث إلى أن يهبط الظلام .. »

قال ذلك ومال على جنبه ليضطجع ، وعيناه القلقتان تجوبان الأراضي والحقول الممتدة حيث الأشجار المنتشرة ، تبدو ناهضة هنا وهناك ، كحراس صبورين ، أرغمتهم إرادة حازمة ، على أن يظلوا فى أماكنهم إلى الأبد . ثم نظر إلى عبد المولى وقال وهو يلكزه فى جنبه ، ليخرجه من الإغفاءة التى بدأت تراود مقلتيه :

— تعرف يا عبد المولى .. لقد كنت أفكر ...

— هيه ؟

قالها عبد المولى مستسلماً للأمر .. بينما اندفع مبروك يقول:

— كنت أفكر .. لماذا لا يرسل الله نبياً إلى الأرض نبيًّا يشع من جبينه النور.. نظراته محبة .. ولمساته رحمة لماذا خص الله القدماء فقط بالأنبياء ؟ ... ترى هل كان آل نوح أشد قسوة منا هذه الأيام؟ وهل كان فى استطاعة جند فرعون أن يدمروا فى لحظات مدينة كاملة كما يستطيع أن يفعل الآن أى طيار إنجليزى أو ألمانى بكل الخطايا التى جاء الأنبياء لمحاربتها ما زالت موجودة حتى الآن .. فلماذا لا يرسل الله نبياً إلى الأرض ؟ وكان يتكلم ، وهو يراقب قرص

الشمس يغوص فى شفق الغروب القرمزى ، وقد بدت السحب المتراكمة عند الأفق كأنها قباب مدينة أسطورية تسبح فى عالم من الأبخرة الشفافة الحمراء ؟؟ وأخذ مبروك بجلال الغروب فصمت .. وإن ظل طيف النبى يتماوج فى خياله .. ثم اندفع فجأة يقول :

— وقبل أن يهبط النبى إلى الأرض .. يلقنه ربه هذه الكلمات .. اذهب كما ذهب رسلى من قبل ، لهداية الشعوب الخاطئة .. فالعبودية كانت خطيئة شعب عيسى .. والقسوة خطيئة شعب محمد ، والكبر خطيئة عاد ، والغرور خطيئة فرعون ، أما خطيئة هذا الزمان ، فهى الحرب ... هى الثمرة المرة ، لكل هاتيك الخطايا .. اذهب وعلم أهـــل الأرض السلام .. والحب ...

وترقرق فى نفس مبروك ، شعاع من التفاؤل وهو يلفظ هذه الكلمات . . . واستشعر الغبطة فى قلبه فهمّ بمواصلة الحديث ، لولا أن ابتدره عبد المولى بقوله : « اسمع ، قم بنا لنجمع بعض الأعشاب والحطب ... لنوقد ناراً قبل حلول الظلام فنهض كارهاً .. وهو غير راض عن صاحبه الذى قطع عليه تيار أحلامه .

وتفرق كل منهما فى اتجاه ، وبعد قليل عادا بما جمعاه من الأعشاب الجافة ، وما هى إلادقائق حتى كانت النار موقدة .

وكان الظلام قد بسط إرادته السوداء على الكائنات ،

وتألقت آلاف النجوم كعيون تتوقد بالشوق والسعير . وأخذ الرجلان يحدقان فى النار ، ونورها الحالم يسطع فى عيونهما ويضىء وجههما ، فيعطيهما بذلك تعبيراً قوياً غامضاً ؛ حتى وجه عبد المولى الجامد اكتسب هو الآخر معنى مبهماً ، كأنه إشارة إلى سر قديم يكون فى أعماق الانسان ؟

وعقد مبروك ساعديه على صدره ، ومال إلى الوراء وقد استغرقته الذكريات .. ورأى ثلاثة أطفال يركضون فى رحبات خياله .. وطيف امرأة شابة فى الخامسة والعشرين ، تحتضن طفلاً وتقبله وهى تهمس .. أما هذا الكتكوت .. فسيكون محامياً لأنه كثير الصياح والضجيج منذ الآن .

واستشعر مبروك الحسرة ، وتحركت الآلام المرة فى أعماقه فمال فجأة إلى الأمام قليلاً (لو جاء نبى ديانته السلام .. فأنا أول من يتبعه ..)

وتحركت على شفتى عبد المولى ابتسامة واهنة وهو يقول : « لكل نبى معجزة .. فماذا ستكون معجزة نبيك هذا ؟ »

وقطب مبروك حاجبيه ، وارتسم على وجهه الجد ، وفكر لحظة ثم قال : « المعجزة .. أجل ستكون معجزته أن يشير بيده إلى كل ما فى الأرض من دبابات ومدافع ، وإلى كل مافى البحر من بوارج وغواصات .. وإلى كل مافى الجو من طائرات يشير إلى هذه جميعاً فتتحول إلى .. فقاطعه عبد المولى مكملاً .. ذهب ، فهز مبروك رأسه وتساءل

مستغرباً « ذهب ؟ وما حاجتنا إليه .. ماذا ينفعنا لو انقلبت الأرض كلها ذهباً وإنما النافع حقا أن يشير إلى الرمال ويقول لها كونى قمحا .. وإلى الأحجار ويقول لها كونى فاكهة .. أما أدوات الحرب فلتتحول إلى رمال وحجارة لا .. لانريد ذهباً ولا فضة ..ولا شيئاً من تلك الأشياء التى يسمونها جواهر قل لى هل رأيت شيئاً من الجواهر فى حياتك .

وهزَّ عبد المولى رأسه وهو يقول : « لا .. سمعت عنها فقط سمعت عن الياقوت والزمرد .. والمرجان » فضحك مبروك لجهل صاحبه ثم قال : أنا رأيت هذه الجواهر كثيراً ، إنها كقطع من الزجاج .. صحيح إنها جميلة لكنى لست أدرى لماذا تكون غالية جدا ؟

وكان مبروك يتكلم وعيناه تضويان فى ضوء النجوم الشاحب .. والذكريات الحية تضمخ روحه بالألم :

ـ لا ياعبد المولى إذا جاء نبى وسادت ديانة السلام .. وازدهر الحب فى القلوب ، فلن يكون ثمة حاجة إلى الذهب حينئذ أتزوج وأنجب أولاداً وأنا لا أخشى أن تسقط عليهم قنبلة.

وترقرقت فى عينيه دمعتان ، لم يرهما عبد المولى الذى استغرق فى النوم ، وترك صاحبه يتكلم .. ومسح مبروك الدموع ، وأسند رأسه إلى جذع الشجرة ، وظل هكذا يحدق فى الظلام وهو صامت ، وكأنه يريد أن يخترق بنظراته ستار الغيب المخبوء

حصة حساب

أخذ عبدالسميع افندى يصعد سلم المدرسة متأنياً ليجنب بدنه السمين عناء الحركة السريعة، وبرغم هذا التأنى فقد ناله التعب فاستند إلى الدرابزين وتوقف برهة ليستريح ، ثم مط رقبته إلى أسفل يتأمل فى دهشة درجات السلم الكثيرة التى صعدها ثم استرخى وهو يميل على الدرابزين ، ويطمئن نفسه على أن المتاعب الباقية لا تزيد على عشر درجات من السلم وبعدها حجرة الدراسة ، وأراد أن يمضى قليلاً فى هذه الراحة بيد أن الصراخ الذى انبعث فجأة من الحجرة وضجيج التلاميذ وأصوات الأدراج التى تفتح وتقفل .. جعله يقطع استراحته القصيرة ويسرع فى اجتياز الدرجات الباقية ليقضى على هذا الشغب .

واكتسح عبدالسميع الفصل بعينيه ، ثم تقدم فى هدوء المتعبين ووضع الكراريس التى كان يحملها على المائدة ، ثم أراح فوقها العصا ... ووقف يتأمل التلاميذ — الوادعين — بنظرة عكرة ، واستمهل غضبه ، ريثما يلتقط أنفاسه ، وبعد حين زفر زفرة هينة وهو يزيح طربوشه إلى الوراء فبدت بعض الشعيرات المبتلة بالعرق لاصقة على جبينه المتشنج .

ثم بدأ يتحرك .. وسار ببطء إلى نهاية الفصل واضعاً يداً فى جيب بنطلونه والأخرى فى جيب جاكتته مما جعله يسير ملووحاً .. وتابعه الصغار بنظراتهم المتلصصة .

ثم عاد إلى أول الفصل وواجه الأطفال بوجه مرصع بقطرات العرق وحاجبين ملتويين أحدهما مشدود إلى أعلى والثانى إلى أسفل وبينهما عقدة .. ورفع يده الضخمة وأخذ يتحسس كرافتته النحيلة المتدلية على صدره باسترخاء كذراع طفل مريض ، وتابع هذه الحركة ثلاثون زوجاً من العيون المترقبة التى لا يعرف أصحابهـــا ماذا بيّت لهم الأفندى ...

وسرعان ماتحققت ظنونهم السوداء إذ صعقهم هذا السؤال

— من منكم كان سبب الدوشة ؟

وأعقب هذا السؤال وجوم شديد ، وتطلعت عيون التلاميذ هنا وهناك بحثاً عن الذى كان سبب الدوشة !

ودوّى الصوت من جديد .

— إذن الملائكة هى التى كانت تصيح . . . والكراسى هى التى كانت تكلم بعضها ! ! . للمرة الثانية أقول .. من كان سبب الدوشة يقف ؟ ولم يقف أحد .

وجرفت عينـــاه الرءوس الصغيرة ، فلم ير أحداً منها (طالعاً) ليقول صاحبه « أنا يافندى » .

وعاد يسأل .. أين الألفة ... ؟

وانبعثت أصوات تقول : « غائب يافندى .. »

وجذب الأفندى كرسياً ، ووضع عليه إحدى قدميه ، ووقف وفى يده الخيزرانة كالصولجان الأغبر فى مملكة النكد، وبدا كمن يتهيأ لموعظة استهلها بقوله : «أصلكم جميعاً من وسط واطى .»

ومع أن الأولاد لم يفهموا تماماً ما هو الوسط الواطى .. إلا أنهم أدركوا — استنـــادا إلى ما يعرفونه عن أخلاق مدرسهم — أنه يعنى لوناً من الإهانة :

— ولو لم تكونوا من وسط واط ... لما كنتم جبناء ... كان يجب أن تكون لديكم شجاعة أدبية ... يعنى إذا أحدكم عمل شيئاً، يقول أنا عملته ... حتى لو نصبوا له المشنقة ! ! ... بدلاً من أن ينكر ويختبئ كأولاد الشوارع :

وصمت لحظة وأخذ يتفرس فى الوجوه ، ليرى تأثير خطبته البليغة فى النفوس ، ثم استطرد :

— هيه . . . أريد الواحد منكم أن يكون شجاعاً . . . والذى عمل دوشة يقف ويقول ... أنا يافندى .

ثم مط عنقه إلى الأمام وقد حسب نفسه ذكياً وسألهم :

— هيه ... من منكم كان سبب الدوشة يا شطار .

وأخذ يؤرجح الخيزرانة كالبندول ، ولاشك أن مرآها على هذه الصورة جعل البناء الشامخ الذى شاده للمثل العليا والشجاعة الأدبية ، يتداعى سريعاً أمام أعين الصغار .

ثم عاد يستحثهم « هيه ... من كان سبب الدوشة يقف بسرعة » .

وراح التلاميذ ينظرون هنا وهناك فى أرجاء الفصل ليروا إن كان بينهم هذا الشجاع ... الذى سيقف منتصب القامة ليقول « أنا يافندى » الذى عملت دوشة .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل ظلوا جميعاً ملتصقين بمقاعدهم فأثبتوا بذلك أنهم فعلاً شطار ... كما وصفهم متخابثاً منذ قليل .

وازداد الأخدود الذى بين حاجبيه عمقاً وزأر مغضباً : طيب يا كلاب .. ليس فيكم واحد يريد أن يتكلم هه ؟ .. إذن كلكم قيام .

وامتثل التلاميذ لأمره ونهضوا مكرهين وقلوبهم تدق فى صدورهم .

واقترب من الصف الأمامى ، وقال للأول وهو يرفع عصاه « افتح يدك » وبعد تردد واستعطاف انبسطت اليد الصغيرة لتتلقى هبة العلم .

ودار عليهم واحداً واحداً . يضربهم ثم يأمر من يضربه « اجلس يا جبان ... » .

وبعد أن انتهى من ضربهم عاد إلى مكانه فى أول الفصل ثم انفجر فجأة .

— يجب أن يعرف كل واحد منكم أن الأدب فضلوه عن

العلم ... أنتم لستم هنا لتتعلموا فقط وإنما لتتأدبوا أيضاً يا قليلى الأدب .

وبعد فترة صمت صاح فيهم مرة أخرى « اخرجوا كراسات الحساب ... لا أريد أن أسمع صوتاً ... افتحوا الأدراج بهدوء واقفلوها بهدوء .

وبعد ما أخرج التلاميذ الكراسات عاد يأمرهم : افتحوها واكتبوا التاريخ .

وانتظر ريثما كتبوا التاريخ ثم عاد يقول :

— خلاص ؟ ... ضعوا الأقلام ، ولا أريد بعد ذلك أن أسمع صوتاً ، كتفوا أيديكم .

وائتمر التلاميذ بأمره فكتفوا أيديهم على صدورهم ، وجلسوا صامتين ساكنين وعيونهم مثبتة على شفتيه الغليظتين وهكذا أتت مواهبه الفذة نتائجها المدهشة فى شل حركتهم وتفكيرهم معاً ! !

ثم استدار إلى السبورة وكتب كلمة « حساب » بخط بذل فيه جهداً لتحسينه ، ثم فتح كراسة التحضير وأخذ يكتب ويردد بصوت مسموع :

— اشترى تاجر — هس لا أريد أن أسمع كلاماً — اشترى تاجر خمسة أرطال من .. (دب تك .. دبدبتك) .

وأثارته هذه النغمة فالتفت على التو وعيناه تقدحان بالشرر وصاح فيهم بصوت مجلجل ، وكأنه فارس يدعو للنزال :

ـ من منكم فعل هذا ياسفلة ؟؟

وعم الصمت

ـ هذا الصوت جاء حتما من صف البغال الذى فى الآخر

وسرت موجة من الطرب فى الصفوف لهذا الوصف البليغ .. بينما اندفع عبدالسميع افندى إلى آخر الفصل وهو يزأر .

وبرغم رهبة الموقف إلا أن التلاميذ شعروا بشىء من الرضا والغبطة عندما رأوا مابدا عليه من غيظ وحنق ... وبدأ الأمر يكتسب لوناً مسليا فى نظرهم .

وتركزت عينا عبدالسميع افندى على الصف الأخير حيث التلاميذ الكبار .. وأخذ يرمقهم بشك ثم نادى أحدهم :

ـ قم ياحسن .. أنت الذى فعلت ذلك ؟

ـ لا والله العظيم يافندى

ـ إذن من ؟

لا أعرف يافندى ..

ـ إذن فأنتم لن تقولوا من فعل هذا ..

ثم أشار بإصبعه :

ـ الصفان الأخيران .. يقفان .

وانطلق التلاميذ المتهمون يدرأون عن أنفسهم التهمة ، ويؤكدون له أن الصوت لم يصدر من هنا بل من هناك .

ولم يجد استعطافهم فأذعنوا فى النهاية ووقفوا وهم يفركون أكفهم تأهباً للعقاب .

وبعد أن أتم عقابهم عاد إلى السبورة وبدأ يكتب ويردد بصوت مسموع :

— اشترى تاجر خمسة أرطال من المسلى .. ثمن الرطل عشرون قرشاً .

وقاطعه غلام من الريف :

— ثمانية عشر قرشا فقط ثمن الرطل يافندى.. وصرخ فيه الأفندى بسحنة مقلوبة :

— يا كلب . نحن لا نساوم هنا .. اسمع ولاتناقش .. فاهم وسأله تلميذ آخر :

— افندى .. ما معنى مسلى ؟

— لا أعرف .. آخر الحصة اسأل .

وهنا صرخ من آخر الفصل واحد من المضروبين :

— افندى الذى أمامى يخرج لى لسانه .

وقذف عبدالسميع افندى الطباشيرة على الأرض وهو يكاد يجن وصاح :

— من هو ؟

— هذا يافندى ..

وانكمش المشار إليه على نفسه وهو يرى عبد السميع افندى يقترب والعصا فى يده .. وعندما أصبح عندهما أشار لكليهما « قفا .. أنت وهو .. »

وفوجئ الشاكى .. وقال فى مزيج من الدهشة والألم :

ـ أنا أيضاً يافندى ؟!

ـ أجل أنت وهو ..

ـ ولكن ماذنبي أنا !.. إنه هو الذى أخرج لى لسانه :

ـ لا أعرف .. يجب أن تضرب أنت وهو .

وأحس الشاكى بالغبن فراح يكابر حيناً ويتوسل حيناً ورفض الأمر بأن يفتح يده عدة مرات .

وكان التلاميذ يراقبون هذه المحاورة وقد غبط كل منهم نفسه لكونه متفرجاً فقط وليس مشاركاً فى هذا المشهد .

وفى النهاية نفد صبر عبدالسميع افندى فانهال على التلميذ ضرباً بالعصا ـ على رأسه وكتفيه ـ وقد تملكته ثورة جامحة ألا تريد أن تفتح يدك ؟ .. خذ .. أتخالف أوامرى ؟ خذ

وانكمش التلميذ على نفسه ورفع يديه ليتقى بهما الضربات المنهالة على بدنه وهو يبكى من القهر .

وبعد أن انتهى عبدالسميع افندى من ضربه عاد إلى التلميذ الذى كان قد أخرج لسانه ، وكان هذا قد اقتنع مما رآه أن المطاوعة أحسن ، ففتح يده فى الحال عندما شرع عبدالسميع افندى عصاه

وهكذا بعد أن طبق عليهما شريعة القاتل والمقتول فى النار .. عاد إلى السبورة ليكمل كتابة المسألة :

ـ وباعها بسعر الرطل خمسة وعشرين قرشا .. فهل كسب أم خسر ؟ .. علماً بأنه أنفق على نقلها خمسة قروش

وخمسة مليمات .. وانتهت المسألة ، والتفت إلى التلاميذ قائلاً :

– هيا اكتبوا هذه المسألة .. ترن .. تررن .. ترن .. تررن . وأصاخ الصغار إلى صوت الجرس الحبيب ، وتراقصت قلوبهم فى صدورهم بيد أنهم بذلوا جهداً للمحافظة على هدوئهم ، وتكلفوا النظر إلى الأفندى متظاهرين بالإصغاء له وهو يقول :

– طيب انقلوا هذه المسألة .. وحلوها فى البيت .

وغادر الفصل .

وكما انطلق شياطين الجن يعيثون فى الأرض فساداً عندما أدركوا موت سليمان ، انطلق الصغار يصيحون ويتقاذفون فى أرجاء الفصل بعد أن غادرهم عبد السميع افندى .



المجرم الثانى

كان المعلم ياقوت يجلس متربعاً على حشية لينة فى مدخل دكانه خلف مكتب صغير ، وحبات مسبحته الكهرمان تنساب الواحدة إثر الأخرى فى هدوء ورتابة ، تحلى رأسه عمامة صغيرة لف شاشها الأبيض النظيف بعناية وحرص وقد أحالها على جبينه ميلاً أنيقاً أكسب محياه وسامة لا يلطخها سوى شاربه الكث المنفوش .

وفجأة توقفت حبات المسبحة عن الانسياب بين أنامله عندما دلف إلى الداخل كهل نحيل العود يتوكأ على عصاً غليظة .: وقد سبقه إلى الأمام عنقه الممدودة التى تحمل وجهاً ضامراً متغضناً ، يصعب على من يراه أن يتبين معالمه ... فعيناه ضيقتان غائرتان وأنفه صغير ، أما فمه فهو مختبئ تحت شاربه الكثيف .

وأحس ياقوت بشىء من عدم الارتيـــاح لمجىء هذا الضيف العجوز بيد أنه رد تحيته بأحسن منها حينما ألقى عليه السلام وهو يسير قدماً إلى دكة صغيرة بجانب المكتب .

وبعد أن استقر به المقام . انعطف ياقوت نحوه وقال مجاملاً دون أن يبتسم :

– مرحباً ... كيف حالك يا مرزوق ؟

فأجابه الضيف بصوت متراخ .

– الحمد لله على كل حال !!

وبعد هذه المجاملة الفاترة ، انصرف المعلم ياقوت عن زائره وأخذ يتصفح إحدى الجرائد .

وبقى مرزوق فى مكانه لا يريم وأخذ يسلى نفسه بمتابعة صبيان المحل وهم يلبون طلبات الزبائن ، ويغوصون داخل الدكان المظلم ثم يعودون وبين أيديهم البضائع المطلوبة كأن بداخل الدكان جباً مسحوراً يقوم على أمره خدم من الجن يلبون كل ما يطلب منهم فى طرفة عين !!

وطالت جلسته على هذا الحال والمعلم ياقوت يرمقه بين لحظة وأخرى بجانب عينيه فى نظرات خاطفة ، ثم يرتد إلى الجريدة يطالع فيها وقد التمعت فى عينيه نجوم صغيرة من شدة الغضب والغيظ ، ولكنه كان يكبت غيظه معزياً النفس بقول الآية : « والكاظمين الغيظ ... » .

وفى النهاية لم يعد الغيظ المتزايد غيظاً ، وإنما زاد وطمى ، وتكثف فى صدره وصار كراهية ، ولما لم تكن هناك آية صريحة تقول : « والكاظمين الكراهية ... » فقد انطلق المعلم قائلاً فجأة دون أن يرفع عينيه عن الجريدة :

– أليس وراءك عمل يا مرزوق ؟

– لا والله يا معلم ياقوت .. ولكن آه ..

ولفظ مرزوق « الآه » بحرقة جعلت المعلم ياقوت يدير إليه عنقه مستطلعاً بينما استطرد مرزوق « آه لو نجحت هذه العملية .. ! »

وسأله المعلم وهو يخفى دهشته ونفاد صبره :

– أية عملية ؟

وعند هذا السؤال زحف مرزوق مقترباً من المعلم ياقوت ثم شرع يقول فى صوت هامس :

– والله العظيم .. أنا لم أر فى حياتى نقوداً بهذه الكثرة رزم من الورق الأخضر مرصوصة فوق بعضها حتى سقف الخزانة .. وليس فيها أوراق صغيرة فأقل رزمة تحوى أوراقا من فئة الخمسة جنيهات .

وصمت مرزوق برهة ثم عاد يهز رأسه ويقول فى نبرة حالمة .. آه لو تمت هذه العملية بنجاح لن يكون نصيبي فيها أقل من بضعة ألوف من الجنيهات :

وترجرج شيء فى صدر المعلم ياقوت وبانت هذه الرجرجة فى عينيه وهو يقول :

– يالك من وغد يا مرزوق ! !.. كنت أظن أنك قد كففت عن هذه الأعمال أمازلت قادراً على السطو وأنت رجل عجوز ؟

ورد مرزوق على تساؤله بابتسامة فخور ... وهو يمسح شاربه بيده الجافة النحيلة ..

وتأمله المعلم ياقوت برهة ثم سرح بأفكاره إلى الماضى أيام كان مرزوق شابا قويا يبعثر الأموال يميناً وشمالاً ... فما أكثر الخزائن التى سطا عليها والبيوت التى اقتحمها وسرق مجوهراتها .. ولم يمسك يده عن السرقة إلا حينما أقعدته الشيخوخة عن ذلك ، وحدث ياقوت نفسه وهو ماض فى ذكرياته : « اللص القديم يعود إلى سطواته » .

وقطع عليه خواطره صوت مرزوق يقول فى أسى :

— الأمر الذى يكربنا كثيراً هو أننا نحاول الحصول على مفتاح الخزانة دون جدوى .. فلنا الآن عدة شهور منتظرين ولكن الخواجة لئيم ولا يدعه يغيب عن عينيه لحظة واحدة

وقاطعه الحاج ساخراً .

— منذ متى يترك أصحاب الخزائن مفاتيحها للصوص؟

ولكن مرزوق لم يهتم بسخريته وإنما استمر يقول :

— إننا لن نؤخره سوى نصف ساعة ريثما نذهب به إلى صانع مفاتيح نعرفه ليصنع لنا شبيها له ثم نعيده فى الحال

ثم أردف وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى :

والذى سيحضر المفتاح موظف فى نفس المكتب الذى فيه الخزانة

وكان ياقوت يصغى إليه ، بينما أصابعه الغليظة المكتنزة

تعبث بذقنه وقد بدأ عليه القلق والتأمل .. وفى النهاية أعتقها وتناول مسبحته التى كان قد أهملها فوق المكتب ثم قال لمرزوق :

ـ اسمع .. إن الأمر فى غاية البساطة ! !.. ما على هذا الموظف سوى أن يحمل فى جيبه علبة من الصفيح بها قطعة من العجين حتى إذا ما سنحت الفرصة يطبع صورة المفتاح على قطعة العجين فيكون من السهل عليكم أن تصنعوا شبيهاً له .

قال ذلك ثم مال إلى الوراء مزهوا بحسن تفكيره تاركاً لصاحبه فرصة التأمل فى هذه الحيلة البارعة .. وما عتم أن جاءه صوت مرزوق المعجب :

ـ يا لك من رجل يامعلم ياقوت ! !.. إن الله يضىء لك بصيرتك ورفت على شفتى ياقوت بسمة مترفقة وأخذ يداعب ذقنه ثم سأل مرزوق فجأة .

ـ كم عددكم ..؟

ـ ثلاثة وأنا الرابع ... وإن شاء الله ... سنأخذ هذه النقود وهذا بحسن تفكيرك يا معلم ياقوت .

وفى صمت فتح الحاج درج مكتبه وتنــاول نصف جنيه ، دسه فى يد مرزوق وهو يقول : « هــذا لك ولأصحابك ودع كلا منهم يشترى بنصيبه مزاج أفيون حتى تنعدل أدمغتكم وتستطيعون التفكير جيداً ... »

وقابل مرزوق هذه الفكاهة « الرقيقة » بضحكة عالية

بينما أخذ المعلم يكركر بضحكة وقور . اهتز لها صدره وكرشه السمين .

ونهض مرزوق لينصرف وودعه ياقوت بحرارة وهو يشدّ على يده ويسأله :

– متى سأراك يا مرزوق ؟

– غداً يا معلم ... غداً إن شاء الله .

وفى اليوم التالى فى نفس الميعاد ، كان المعلم ياقوت يجلس فى دكانه فاقد الصبر فى انتظار مرزوق ... ولكن مرزوق لم يأت فى ذلك اليوم ولا فى اليوم الذى بعده .. ولم يحضر أيضاً فى اليوم الثالث ... وعندما مرّ اليوم الرابع ولم يأت ، بدأت الوساوس تغزو صدر المعلم ياقوت ، حتى أصبح إذا ما آوى إلى فراشه فى الليل ، يروح يحدث نفسه « لعـــل فكرتى قد نجحت واستطاعوا أن يصنعوا مفتاحاً للخزانة ... ولعلهم أخذوا الأموال وهربوا بها ... نفذوا فكرتى وهربوا ... يا للأوغاد اللصوص .. » .

وفى اليوم السابع عندما رأى هيكل مرزوق يدلف إلى داخل الدكان متوكئاً على عصاه الغليظة قاوم لهفته وتظاهر بعدم المبالاة ورد على تحيته بفتور وانتظر حتّى جلس على الدكة ثم قال :

– كيف حالك يا مرزوق ... فيما هذه الغيبة الطويلة ؟

فأجابه مرزوق بصوت حزين :

ـ المشاغل يا معلم ياقوت .

فرد عليه هذا وهو يبتسم :

ـ عسى أن تكون هذه المشاغل قد جاءت بفائدة ...

ولم يرد مرزوق على الفور بل ظل صامتاً برهة وقد بدا على محياه الكمد ، والحاج يرمقه بين الحين والحين فى انتظار أن يتكلم ... وفى النهاية قال مرزوق وهو يزفر : « الحظ السيئ يلازمنا يا معلم ياقوت » واضطرب المعلم لهذه العبارة فأسرع يسأله فى جزع : « لماذا ... هل سبقكم آخرون» ؟ فهز مرزوق رأسه وهو يقول : « لا .. بل ســافر الخواجة . . سافر إلى الخارج ومعه مفتاح الخزانة ويبدو أنه لن يعود إلا بعد بضعة شهور » .

وإذ اطمأن الحاج إلى أن المال لم يؤخذ ، وإنه باق فى مكانه الحصين عاد يقول وهو يتعمد أن يحمل نبرات صوته معنى الاستخفاف والسخرية .

ـ إذن فقد ضاعت مهارتك يا مرزوق يا ابن الليل .. هه .. وأعيتك الحيل .

وقابل مرزوق هذه الغمزة بابتسامة واهنة .. وقال وهو يرفع عينيه الكليلتين إلى وجه ياقوت وفى صوته رنة الاعتداد بالنفس :

ـ لا . لا شيء يعجز عنه مرزوق ما دام يعرف طريق المارد الذى يحطم خزانات الحديد !

وبدت الحيرة فى عينى المعلم ياقوت وهو يسأل :

— وما هو ؟

— الأكسجين .

— الأكسجين ! .. ما هذا ؟ .

فقال مرزوق وهو يبتسم فى ثقة .

— جهاز الأكسجين . . . ألا تعرفه . . الجهاز الذى ينفث النار التى تذيب الحديد .. لم يوجد حتى الآن قفل لأية خزانة يستطيع أن يصمد أمام لسانه الأزرق القاطع ..!!.

وهزّ ياقوت رأسه هزة من فهم ثم شرع يقول :

— وما دمت شاطراً إلى هذا الحد .. فما الذى يؤخركم حتى الآن وأطرق مرزوق برأسه قليلاً ثم بدأ الحديث والأسى يشيع فى نبرات صوته .

— يؤخرنا حاجتنا إلى المال ... والأكسجين غال .

وهزّ ياقوت كتفه باستخفاف وهو يسأل :

— كم ثمنه ؟

— أربعون جنيهاً ... وليس هذا فحسب بل نحتاج إلى عشرة جنيهات أخرى على الأقل ، أجر سائق العربة التى ستنتظرنا حتى نخرج بالمال ونهرب فيها .

وكان المعلم ياقوت يصغى ويده على ذقنه يحكها بشدة وقد بدا عليه التفكير وزحف مرزوق مقترباً منه وواصل حديثه فى نبرة رجاء :

— لو أنك أقرضتنى هذا المبلغ ... فإنى أقسم أن أعيده لك بعد يومين .. وسوف أعطيك عشرة جنيهات عن كل جنيه من جنيهاتك الخمسين .

وبسليقة التاجر قام ذهن ياقوت على الفور بإجراء عملية حسابية صغيرة ، وللحال ارتسمت فى ذهنه صورة لها إغراء شديد : خمسمائة جنيه !! .

ولم يقل ياقوت شيئاً ، وإنما استمر فى شروده ومرزوق يرقبه بعين الرجاء واللهفة ، وفى النهاية قال : « حسناً مر على غداً يا مرزوق فى الصباح » .

ونظر إليه مرزوق وقد بدأ التأثر الشديد على محياه وقال « بارك الله فيك يا معــلم ياقوت .. لن أنسى جميلك هذا ما حييت » ونهض ليغادر الدكان .

وحدث ياقوت نفسه وهو ينظر فى أعقابه ويبتسم « اللص القديم يعود إلى السطو » وعندما عاد مرزوق فى اليوم التالى ناوله ياقوت حزمة من الجنيهات أسرع مرزوق بدسها فى جيبه ولسانه يلهج بالشكر .

وعندما قام لينصرف سأله ياقوت وهو يشدّ على يده « متى سأراك .. » ففكر مرزوق لحظة ثم قال « سآتى غداً... لنتحدث قليلاً حول هذا الموضوع » .

وفى الغد كان مرزوق جالساً فى إحدى عربات الدرجة الثالثة فى قطار الصعيد وهو يحدث نفسه : « خمسون جنيهاً ...

لا بأس .. إنهم خير من لا شيء .. قال لى الأطباء عليك بالجو الجاف ... فهو أصلح مكان لمرضى السل .. وأنا لم أعد قادراً على العيش فى المدينة ... سأبقى فى قريتى هذه المرة — حتى أموت» .

وتحسس رزمة الأوراق التى فى جيبه ثم ابتسم ابتسامة رضا .

الرمق الأخير

كان واضحاً أن الأستاذ فريد لم يقض ليلة مريحة — رغم تأخره فى الفراش ساعتين أكثر من المألوف — تشير إلى ذلك بصمات الأرق التى ختم بها على وجهه ، راسماً هالتين داكنتين حول عينيه ، كاسياً وجهه بالشحوب . وحين بارح الفراش وانتصب واقفاً أصابه دوار خفيف أبقاه عاجزاً عن الحركة ، وفى النهاية شرع فى المسير ناقلاً رجليه خطوة خطوة ، وركبتاه ترتعشان ، والوهن يكاد يرخيه على الأرض ، وعيناه يلمع فيهما قلق حاد رغم قرب عهدهما بالنوم ... ولم يكن ذلك لأنه فى الستين فحسب ، بل لأن الأزمة التى كانت تعتمل فى نفسه منذ بضعة أيام كانت قد بلغت مداها فى هذا الصباح ... وجلس على مقعد فى الصالة واضعاً وجهه فى راحتيه . وانكب يغالب شعوراً طاغياً بدأ يزحم صدره ؛ كانت الرغبة فى البكاء تراوده ، وكان هو يقاومها فى عناد متكبر لم يلبث أن انهار وانبجست الدموع مبللة راحتيه ووجهه . وكما بكى فجأة سكت فجأة كأنما استقبح فى نفسه هذا التخاذل . وقام واغتسل ثم عاد إلى حجرته وشرع فى ارتداء ملابسه على عجل . ولم يكن ثمة داع

للإسراع فأمامه ساعات قبل أن يتحتم عليه مبارحة الدار . وعندما اكتمل هندامه بدأ فيه مشعثاً كأنه ارتداه منذ البارحة ولم يخلعه حتى الآن .

أتم ارتداء ملابسه فى دقائق، وبعد ذلك لم يجد ما يفعله سوى التنقل بين الحجرات بلا هدف . وحين وجد ساعته تشير إلى الواحدة ؛ بدت عليه الدهشة ؛ فهو لم يكن متنبهاً للوقت وكان يظن نفسه لايزال فى البكور . والواقع أن حجرات البيت كانت معتمة تضلل الحواس وتجعلها تتوهم أن الوقت صبح أو بعد الصبح بقليل . ولم يفكر فى فتح النوافذ — رغم ذلك — وإنما اقترب من إحداها ومكث ينظر خلال الشيش إلى وهج الشمس فى الخارج ، ثم ارتد فجأة من النافذة ومضى إلى حجرة مكتبه .

كانت حجرة واسعة نظيفة الأثاث — وإن كان قديماً — يمتد بطول جدارها الأيمن صوان ضخم ، تبدو من وراء واجهته الزجاجية صفوف من كتب القانون . وفى ركن آخر أريكة للقراءة فوقها رف أنيق عليه صف من الكتب الصغيرة ، ويعلوه رف آخر ليس عليه سوى كتاب واحد منبوذ اختار له مؤلفه هذا العنوان الغريب « محاولة لتعقيل العقل »

وعلى الجدار المواجه للأريكة علقت صورة كبيرة لامرأة فى ريعان الشباب ، ليس جمالها وحده هو الذى يسترعى الأنظار ، ولا جدائل شعرها المنثور على كتفيها ؛ بل تلك

الابتسامة الصغيرة التي تبدو متلاعبة على شفتيها كأن صاحبتها تلقت نبأ طريفاً وهي تتأرجح فيه بين التصديق والتكذيب .
وقف الأستاذ فريد أمام هذه الصورة حالماً ، دخل الغرفة وراح ، يديم إليها النظر - وقد اكتسى وجهه إمارات جادة حزينة - كأنه يواجه مخلوقاً من لحم ودم وليس رسماً على الجدار . وبدا كمن يهم بقول شيء ثم أمسك مكتفياً بهز رأسه هزات متتابعة كمن يشكو لها أمراً يؤوده ، بينما المرأة تطالعه بابتسامتها الخافتة المتأرجحة بين التصديق والتكذيب . وبعد لأى سار إلى مكتبه وجلس إلى كرسي بذراعين ، وأسند خده على كفه وراح يفكر وقد امتلأت خياشيمه برائحة الدواء ... فقد كان أمامه عدد من الزجاجات وعلب الأدوية المزدانة بالرسوم والألوان الزاهيـــة كأن ما بداخلها حلوى وشربات ! ! ... ولعل شكلها الجميل وحده هو صاحب الفضل على صحة المرضى أكثر من الدواء ذاته الذى لا يبدو له تأثير على الإطلاق ... وكانت أوامر الطبيب مشددة « ألا يتهاونَ فى تعاطى الدواء بميقـــات معلوم » ومع ذلك فهو ما برح يهمل فى الآونة الأخيرة . وكان لذلك أثره طبعاً ؛ فقد أراحه من وجع البطن الذى تسببه له هذه التشكيلة الغريبة من الحبوب والأقراص والجرعات .

وببطء أخرج من أحد الأدراج ورقات مطوية ، وفضها بعناية ، ثم بسطها أمامه ؛ كانت ثلاث ورقات لرسالة مكتوبة بخط دقيق .

وصلته هذه الرسالة منذ بضعة أيام ، وكان وصولها هو السبب فى إثارة شجونه وإذاعة كل هذا الاضطراب فى كيانه ، ومع ذلك فهى كغيرها من آلاف الرسائل التى تكتب كل يوم،تبدأ بهذه العبارة المألوفة « أبى الحبيب ... » ولم يستطع أن يمنع الرعشة ولا خفق القلب الثقيل وهو يلمح هذه العبارة فى أول سطر ... وأخذ يدور بعينيه هنا وهناك فوق السطور ؛ لم يكن يقرأ بانتظام ، فقد قرأها عشرات المرات خلال الأيام الفائتة حتى كاد أن يحفظها عن ظهر قلب . وفى الصفحة الثانية استقرت عينه على هذه الفقرة : « جاء سمير يا أبى . جاءك أتذكر ؟ ... كان ذلك عقب زواجنا بشهر ، فقد أصر — ولم يكد ينتهى شهر العسل — على أن يسعى إليك ، وشجعته أنا ، وكلى ثقة فى عطفك وعدالة حكمك علينا — كيف لا وأنت القاضى الذى يحكم بين الناس بالعدل — وقطع مئات الكيلومترات ليأتى إليك مقدماً الاعتذار ، طالباً الصفح . ولكنك يا أبى طردته شر طردة وأحزنته حزناً هائلاً حتى أنه بعد عودته ظل يومين كاسف البال مهموماً ، ورفض أن يكلمنى عن رحلته أو يبوح لى بشىء ... وحين اشتد شاغلى ولعبت بى الهواجس، ألححت عليه بالسؤال ، وأنا بين الزعيق والتوسل ، وفى النهاية أخبرنى بما حدث ، وليتنى لم أسمع هذه القصة أبداً . أصحيح أن هذا حدث ؟ ... قال : ذهبت إلى المحكمة لأرى

أباك ولم أجده فى مكتبه ، قيل لى إنه فى الجلسة فانتظرت ...
انتظرت ساعتين حتى جاء ، ولم يكد يفتح الباب وتقع عيناه
علىَّ حتى ارتد فوراً كأنه رأى شيطاناً . وبعد دقيقة رأيته
داخلاً من جديد وخلفه شرطيان ، وقال لهما وهو يشير إلى
بازدراء « اخرجاه .. » . أحقاً حدث هذا يا أبى ؟ . . .
حدث منك أنت ، أنت الحريص على مشاعر الآخرين . لم لم
تكلمه بينك وبينه بدلاً من هذه الإهانة ؟.. ورغم الحالة التى
كان عليها الأستاذ فريد ؛ فإنه لم يستطع أن يمنع نفسه من
الابتسام وهو يستعيد فى خياله صورة هذا اللقاء الذى تم بينه
وبين زوج ابنته . أشفى غلته يومها أن يراه واقفاً كالمأخوذ
بين الشرطيين وقد امتلأ وجهه الصلف بالكبرياء ، ولكنها
كانت كبرياء مهزومة طعن فى الصميم فوقع متمرغاً فى فوضى
الارتباك والخجل ... لقد باغته وانتصر عليه ، وما زال
يحس بالتشفى والرضا كلما تذكر هذا اليوم . وانفلتت من
شفتيه ضحكة حادة مفاجئة أمسكها على الفور كمن استراب
فى نفسه ... ثم قطب جبينه كأنه يوهم الرؤى والخيالات التى
تضطرب فى رأسه ؛ أنه جاد وليس هازلاً . وقال بصوت
مكتوم مغيظ : « ومع ذلك فالواضح أنك قد غضبت من أجل
عيون سمير ... غضبت منى أنا ، أبوك الحبيب هه هه !.. أليس
كذلك ؟ وقاطعتنى خمس سنوات ولم تحاولى أن تكتبى حرفاً
واحداً تفسرين به فعلتك الشنعاء ... والآن تتكرمين برسالة ».

وأخذ يقلب الأوراق بين يديه ، ثم نظر إلى الصفحة الخامسة وقرأ : « ... وتحيرنا فى اختيار اسم لها . وربما لا تصدقنى إذا قلت ... إن أول ما فكرت فيه هو أن أرسل لك أنبئك بمجىء صغيرتك ، وأن أترك لك حرية اختيار الاسم الذى يروقك ... وما منعنى سوى خوفى من أن ترد رداً جافياً ، أو — ما هو أسوأ — ألا ترد على الإطلاق ... وقد اختار لها أبوها اسماً جميـــلاً لا بد وأنه سيروقك : « لحظة » .. أرأيت .. أليس اسما طريفاً يا أبى ؟ ... » وغمغم محنقاً وهو يقلب الورقة « إن لصاحبنا مزاجاً شاعرياً ! ! » .

وعلى الوجه الآخر قرأ فى منتصف الصفحة « سامحنى يا أبى ... فأنا أعرف أنى تسببت لك فى آلام كثيرة ... » . مطّ شفتيه وهو يدير فى نفسه هازئاً « آلام كثيرة ! ! ... ماذا تظن الحمقاء ؟... لعلها تظن أن ما أصابنى لم يكن أكثر من صداع وعالجته بقرصين من الإسبرين ... هل تعرف البنت الطائشة معنى الألم ؟ ... هل تعرف معنى الخجل وهزيمة الكبرياء وأنا أرى السخرية فى عيون الناس ؟... » . وتراخى حبل أفكاره ... تمددت الكلمات وتشكلت صور لها وجوه وعيون وشفاه تتحرك :

« أين ابنتك إنا لا نراها هذه الأيام ؟ »

« أحقا هذا إنى لا أصدقه ؟! »

« هذا جنون .. »

« هذا طيش .. »

« وهذا الرجل ، كيف سمحت له بدخول بيتك ؟ »

« آه يا صديقى ، إنى أعرف أن هذا ثقيل ، ولكن تحمل واعتصم بالصبر .. عشرات الاستفسارات المتطفلة تحاصره .. كل سؤال وكل مواساة تخترق أذنه كأنها إبرة محقن تصب سماً يسرى حريقه فى العروق ..

أفاق من شروده على خاطر عنيد ، كان أشد خواطره مغالبة له .. والذى زرع هذا الخاطر فى نفسه ، كلمات قالتها ابنته ، كلمات قوية — وهو يعترف بذلك مغيظاً — لا زالت فقد قرأها وهى تتصدى لثورته وتفحم منطقه .. وراح يقلب الرسالة متعجلا وهو يخطف الأسطر بعينيه بحثاً عن فقرة معينة ، وحين عثر على الصفحة المنشودة بسطها تحت عينيه وقرأ : « .. وقبل ذلك أرجو أن تنظر إلى الأمر بعين القاضى المنزه عن الهوى .. ها نحن أمامك متهمان — أنا وسمير — مانوع التهمة ؟ .. فتى وفتاة تزوجا على سنة الله ورسوله ، ولا تنس أنهما راشدان .. حسناً يا أبى . أيها القاضى ، احكم »

وزم شفتيه وقد بدا عليه الضيق ، ثم قال محدثاً نفسه ولكن دعينا أولاً نعيد صياغة التهمة .. » فتى أغرى فتاة على الهروب من بيت والدها ، وأخذها تاركاً للذى رباها الفضيحة والعار والحزن ، والفتى رقيع وماكر ، وسبق أن

رفضه أبوها عندما تقدم إليه طالباً الزواج ، والبنت ساذجة ولا تفهم من أمور الدنيا شيئاً .. فما الحكم ؟ »

ورغم هذه الصياغة الجديدة ، التى صاغها وفق هواه ؛ فإن عقله راح يعمل بطريقــة قانونية آلية مبرزاً كلمة « براءة » بحروف مضيئة فى أفق خيــاله ... وأنكر هو الكلمة ، وتمنى لو شطبها شطباً من خياله ، ولكنها رغم ذلك بقيت مسببة له الضيق والحيرة ....

وراح يتلهى بأن صوَّر لنفسه زوج ابنته واقفاً أمامه متهماً بمثل هذه التهمة وهو يصدر ضده حكماً بالإعدام ... وتمتم محدثاً نفسه : « لو صح هذا لما عانيت أى تأنيب للضمير !! . »

ولما كان قد اعتاد طوال حياته أن يخضع للمنطق الصارم ، الذى لا يميل مع الهوى بحكم عمله — فقد أدهشته النتيجة التى وصل إليها تصوره . بل وأقلقته شيئاً ما ... فراح يبحث له عن ركيزة منطقية يبرر بها حكمه الصارم ... ورغم طول التفكير وكدِّ الذهن ، فقد وجد أن المنطق يخونه ويتخلى عنه تاركاً إياه أعزل أمام الدفاع ... رغم أنه كان يشعر بهذا المنطق طوال الوقت ، يشعر به مبثوثاً فى لحمه ودمه ، ذائباً فى عواطفه وغرائزه ، وله مبرراته وحيثياته الغامضة ، وله وسيلته القاهرة فى الإقناع ، رغم كل البراهين التى تصوغها العقول الذكية !! ومن ثم وجد نفسه فى

تلك الحالة التعسة التى ينشق فيها الإنسان شقين ، أحدهما يغفر ويحب والآخر يتهم ويمقت ، الحالة التى يفرخ فيها القلق ويتكاشف . .

ومرة أخرى راح يقلب أوراق الرسالة وانتهى إلى هذه الأسطر : « سنصل محطة القاهرة يوم الأحد فى القطار الآتى من الاسكندرية ، إنه يصل فى السادسة مساء ، وسنركب بعد ذالك قطار الصعيد الذى يقوم فى السادسة والنصف ، وسيكون لدينا نصف ساعة نقضيها فى المحطة . إننى أضرع إليك يا أبى أن تأتى ، أضرع إليك فكم أنا مشتاقة لرؤيتك .. » رفع رأسه ، وقد استبد به إحساس عنيد وتمتم ساخطاً : « نصف ساعة هه ؟! يالها من كسرة خبز يلقونها للكلب العجوز فى النهاية .. »

وهب واقفاً . وأخذ يذرع الحجرة طولاً وعرضاً ، ثم توقف أمام الصورة المعلقة فى الجدار وراح يديم إليهـــا النظر .. كان الوجه الجميل لايزال محتفظاً بابتسامته الخالدة ولانت صلابة الشيخ ، وتمتم هامساً : « آه يابهيجة .. كم كنت طيبة القلب وجميلة .. ولكن كيف حملت أحشاؤك كل هذا الكدر الذى أنجبته لى ؟!.. كيف تنجب النفس الوديعة الوفية نفسا متمردة خؤون !! ابنتك تذكرت فى النهاية أن لها أباً .. وأرسلت أيضاً رسالة .. تريد منى أن ألقاها على المحطة .. هل أذهب ؟ ولكن لم لا تأتين معى لنشاهد

معاً هذا المشهد الطريف ـ سيكون مشهداً طريفاً حقا ـ أتوافقين؟ » . وجلس على طرف الأريكة وهو عالق البصر بصورة زوجته المتوفاة .. إنها هي بعينها وجدائل شعرها ووجهها الرائق الوديع ، هي بذاتها أمام عينيه ولكن ما أشد نأيها ، وتمنى لو خرجت إليه من إطارها ليحتويها بين ذراعيه ويبكي على كتفها .. إنها الوحيدة من بين العالمين التي كان باستطاعته أن يكشف أمامها عوراته ويبدى جراحه دون ما حرج . واتكأ على وسادة بجانبه وراح يفكر . لم تكن أفكاره منتظمة ، بل هي ومضات متقطعة من الصور والذكريات تبرق في خياله ثم تختفي كمن يشاهد «نصف فصل» يعرض في إحدى دور السينما ، ليلة زفافه وبهيجة ملتصقة به والفرحة تملأ جوانحه ، إنها الفرحة البكر التي لن تعاود القلب أبداً ، فرحة الرجولة الظافرة وهي تدخل ـ لأول مرة ـ نطاق الأهمية والنعيم .. رسوبه في السنة الثالثة بالكلية ما أمر الفشل .. حادثة شجار بالأيادي بينه وبين زميل في المدرسة الثانوية .. دخوله وهو طفل فيلما بعنوان « الضحايا » وهولا يذكر منه سوى صورة رجل مشدود إلى عجلة التعذيب وجسده يتفصد بالعرق والدم ، إنها من ذكرياته الغريبة الثابتة التي لا تفتأ تعاوده بين الحين والحين .. يوم إعلان نتيجة الليسانس وتأكده أنه من الناجحين ما زال يذكر نفسه بالقميص والبنطلون ماشياً في الطريق ، شاعراً

أنه ملء الأرض والسماء .. أحلامه العذبة بالانخراط فى سلك النيابة .. فايز على عيسى اسم من هذا ؟ .. هرب مريم مع سمير ، إنها أثقل لطمة تلقاها فى حياته .. صورة زوجته وهى على فراش الموت ، كان يوماً كئيباً أغبر ، بدت فيه الدنيا معتمة كأن الشمس انخفت نورها . ماتت وهى توصيه بمريم.. ومريم يومها جالسة بين لعبها فى الحجرة التى قادها إليها حتى لاتشعر بالجو الحزين الذى يسود البيت .. واحتواها بين ذراعيه ثم انخرط فى بكاء مرير ، ولكنه أمسك دموعه حين وجد أنه أخافها وأبكاها ، وأخذ يتكلف الابتسام فى وجهها وما زال بها حتى هدأ روعها وعاودها الاطمئنان ، حينئذ تركها وسط لعبها وعاد إلى المأتم .

منذ تلك اللحظة أصبحت مريم هى الأمل الوحيد الباقى له فى الدنيا وهو يراها الآن فى ومضات متتابعة كمن ينظر إلى شريط يعرض صوراً أمام عينيه : ها هى تدور بدراجتها الصغيرة فى أنحاء البيت ... وها هى فى ثياب المدرسة ، صاعدة السلم ببطء وفتور وحقيبتها فى جنبها ... وها هى ممسكة بيديه . ترجوه وتلحف فى الرجاء أن يذهب بها إلى الأقصر وهو يحاورها ضاحكاً من نزوتها الغريبة،ورغم ذلك أجابها إلى طلبها وسافرا ... وها هى فى فستانها الأزرق الجميل ذى الشرائط البيض ، لقد أوضح هذا الفستان كل معالم جسدها وجعله يتنبه لأول مرة ، إلى أنها صارت فتاة

ناضجة،وما كان أشد افتخاره وسروره وهو يستشعر هذه الحميقة ... وها هي متكورة جنب الراديو تصغي إلى أغنية... وها هي ، وها هي ، ما أكثر اللقطات البارعة التي تعرضها الذاكرة . وأحس بقلبه يذوب بين ضلوعه، فرقد على جنبه متكوراً كطفل صغير وقد بدأت الرؤى تضطرب في رأسه وتختلط حتى صارت كأنها شرائط عديدة الألوان، ترفرف وتبرق أمام عينيه ، وفي النهاية بهتت وأظلمت . غفى ... ثم انبلجت الرؤيا من جديد،وألفى نفسه واقفاً على الرصيف في طريق مزدحم ، والناس يندفعون متعجلين في تيار متلاطم لا ينتهي ، وعلى الرصيف المقابل كانت مريم واقفة تشير إليه ... وحاول عبثاً أن يشق لنفسه طريقاً وسط الزحام . كانت الخلائق تتداخل وتلتصق وتصير كتلة واحدة كأنها حيوان خرافي نبتت فوق ظهره آلاف الرءوس وكأن اليوم يوم الحشر ... العرق يتصبب واللغط يشتد . وهذا الحيوان يزحف وسط الطريق عازلاً ما بينه وبين مريم . وتحركت شفتاها بكلمات لم تصل إليه . وراح يتفلفص ويتملص ولكن هيهات ؛ فقد أحس بجسده يلتصق بالأجساد حوله . وتحركت قدماه برغمه مع الكتلة المنسابة .

فتح عينيه فوجد نفسه غارقاً في بحر من العرق . ومكث لحظات مكروب النفس من تأثير ذلك الكابوس ، ولم يفق تماماً إلا على دقات الساعة المعلقة في الصالة . نبهته إلى

الوقت ؛ فأسرع ينظر إلى ساعة يده ، ثم رفع رأسه هامساً فى دهش « السادسة ! ! » ثم اندفع إلى الخارج لا يلوى على شيء .

هبط السلم فى عجلة واندفاع وقد زايله الوهن وارتعاش الساقين اللتين كان يعانى منهما منذ قليل ، كأنما أسقي جرعة سحرية تعيد الشباب وتشحن البدن بقوة دافعة عاتية . وعند الباب لاجت عيناه بحثاً عن سيارة أجرة ... « الحظ العاثر هو الحظ العاثر » هكذا حدّث نفسه عندما لم يجد سيارة على مدى البصر . وهملج فى الطريق حتى الناصية ثم دار مع الرصيف ومشى مسافة دون أن يجد شيئاً ، وأخيراً لمح سيارة عند ناصية زقاق فغذّ خطاه إليها . وجد السائق نائماً فلم يضيع وقتاً ؛ فتح الباب وارتمى على المقعد الخلفى ثم لكزه فى ظهره ، وعندما التفت السائق مأخوذاً بالمفاجأة ألقمه الأمر فى كلمة واحدة : « المحطة » . ومضت ثوان خالها دهراً قبل أن تنطلق به السيارة فى الطريق . وبعد قليل مال على أذن السائق متسائلاً :

ـ بعد كم من الوقت نصل المحطة ؟ .

ـ بعد ربع ساعة تقريباً .

ـ هذا كثير ... ألا يمكن فى أقل من ذلك ؟ .

وهنا أجاب السائق وهو يميل بوجهه قليلاً ناحيته :

ـ ممكن يا أستاذ . . . ممكن أن نصل حتى فى خمس دقائق ... ولكنك تعرف أن الممكن ليس دائماً ممكناً ! ! .

وعقب السائق على ماقاله بضحكة عريضة صافية .. وتلقى الأستاذ فريد هذه الضحكة بعدم ارتياح ، فانكمش فى ركن السيارة وهو يحدث نفسه « حقا . إن بعض الناس تتفوه بكلمات لا تفقه معناها .. وإلا فما الذى يضحك هذا الشقى !؟ » ورغم شوقه إلى معرفة الوقت إلا أنه خاف أن ينظر إلى ساعته .

ونظر خلال النافذة فوجد السيارة تطوى الأرض طيا ، فعاد ينظر إلى ظهر السائق وقد امتلأ قلبه بالحب والامتنان لهذا الرجل ؛ الذى يبدو أنه أحس لهفته ، فراح يندفع بالسيارة فى سرعة فائقة جسور .

آه لو استمر هكذا .. ولكن ها هى ذراع معلقة فى الهواء وبالكاد استطاع السائق أن يكبح جماح السيارة خلف ظهر جندى المرور مباشرة ، ثم التفت إلى الأستاذ فريد وعلى وجهه ابتسامة مهزومة ، ولسان حاله يقول : « أرأيت .. الممكن ليس دائماً ممكنا .. »

وحين انطلقت السيارة من جديد ، مال بمرفقيه على الكرس الأمامى وراح يرقب الطريق وهو يطوى . وتذكر قصة قرأها منذ زمان بعيد عن لقاء بين قديس وسكير .. وقد راح الأول يبدى للثانى معجزاته . أطفأ الأنوار ثم أضاءها بإشارة من يده .. حرك الأكواب والموائد حين أمرها .. وسار فى الطريق يشير إلى النوافذ والأبواب فتفتح

وتقفل .. وفى النهاية طلب منه السكير أن يوقف الزمن فأوقفه ! !

هذه هى القصة وهو لايذكر التفاصيل ، ولكنه يذكر جيداً أنه قد كان فيها شىء عن الزمن وعن إيقافه . وقال مناجياً نفسه : « من لى بهذا القديس الآن ليوقف الزمن نصف ساعة نصف ساعة فقط .. ما أكثر ما ضيع من دقائق وثوان غالية . . »

وكف عن التفكير حين انفسح أمامه ميدان المحطة ، وكان أول شىء لاحظه هو ذلك القرص المستدير ذا العقارب المستقر فى أعلى البناء : الساعة ... رآها برغمه كما لو كانت تضغط ضغطاً على أعصاب عينيه . وتمتم : « النصف إلا خمس دقائق .. » . ونظر إلى ساعته فوجدها النصف إلا ثلاث دقائق ... وتمنى لو كانت ساعة المحطة هى الأصدق ، وتعلق بهذا الرجاء . ودارت السيارة دورة كبيرة حول الميدان ، كبيرة ... حتى خالها تدور حول الأرض ، وأخيراً توقفت أمام باب المحطة .

وحين صار فى الفناء الداخلى ضايقه ذلك الجمهور الكبير الصاخب ، وأخذ يدور هنا وهناك زائغ النظرات منقباً بعينيه فى الوجوه وهو لا يدرى إلى أين يتجه ... وصادف رجلاً من رجال المحطة فسأله عن الرصيف الذى يقف عنده قطار الصعيد ، فأشار له الرجل إلى بوابة أمامه وهو يقول مستحثاً : « إذا كنت تريد القطار فأسرع ، إنه على وشك التحرك ... »

جرى إلى البوابة واقتحمها دون أن يبـــالى بعامل التذاكر ، وحين رأى القطار واقفاً حمد الله . وأخذ يتفحص وجوه الركاب المطلين من النوافذ . وفاجأه صفير القطار ، فجن جنونه والتاثت خطواته . تحرك القطار ... وأخذ هو يجرى هنا وهناك ويصطدم بالناس كمخلوق اشتعلت فيه النار ... وفى قلب الدوامة سمع صوتاً ينادى فى لهفة .. « أبى .. أبى ... » عرف الصوت فاستـــدار يبحث عن صاحبته ، لمح امرأة تلوح بيدها فى انفعال وقد أخرجت نصفها من النافذة . دقق النظر فيها ثم هتف باضطراب « مريم ... » وأسرع إليها باسطاً كفه ، يريد أن تلتقى بكفها الممدودة خارج النافذة ، ولكن القطار زاد سرعته فنأت عنه ، واستجمع قواه وأخذ يعدو لاهثاً ، وأغلى أمانيه أن أن يلمس يدها ولو بأطراف أصابعه ، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق ، فالقطـــار يسرع ... وظل هو يجرى ويجرى ويجرى ، وعند نهاية الرصيف انفلت القطار إلى الخلاء ملمدما تاركاً يده ممدودة فى الهواء كأنه يستجدى ... وأخذ وجه ابنته يمحل رويداً رويداً ثم اختفى .

وقف الشيخ ذاهلاً يحدق فى القطار الهارب وفى جوفه مريم ولحظة ... وأخذ يضمحل ويضمحل حتى ذاب فى غبش الأفق ، حينئذ أظلم الكون فى عينيه . وهبط عليه التعب فجأة ، ودار رأسه فارتمى على الأرض .... ومات

اليوم المشهود

في أمسية باردة دخل رجل غامض يلبس نظارة سوداء على مندوب الإعلانات لإحدى الجرائد المشهورة . وأبدى رغبته في نشر إعلان في مكان بارز من الجريدة ، كما أنه في ذات الوقت أظهر استعداده لدفع أي مبلغ يطلب منه مهما غلا . وأتبع كلامه بأن ناول المندوب ورقة مكتوبة ما كاد نظر المندوب يقـــع عليها حتى ارتسم على وجهه الذعر ، وارتفع حاجباه من الدهشة ، ثم هتف وعيناه لا تستقران على شيء :

— ما هذا .. ؟ ! !

وكان الرجل الغامض واقفاً يراقبه في صبر وصمت ، وقد ثبتت على فمه ابتسامة مكتئبة . ولما رآه يعلن دهشته على النحو السالف ، أجابه في صوت غائر النبرات ، مختنق :

— هذا هو الإعلان ..

وحين لم يتلق جواباً استطرد :

— إسمع يا أستاذ ، لا داعي لدهشتك على هذا النحو كما أني أسبق فأقول لا تحاول الرفض ؛ فإن مهمتك هنا

تنحصر فى جمع الإعلانات أما الباقى فإنه من اختصاص الإدارة ..

ولكى يجعل كلامه أكثر إقناعاً أردف « هذا وإلا أقتلك » .

وبهت المندوب ، وظل لا يجد النطق برهة ، وحلقت عيناه فى الوجه الغامض حيث طالعته ابتسامة متشنجة شنعاء وجال بخاطره أن رجلاً يرغب فى نشر هـذا الكلام ، ويبتسم مثل تلك الابتسامة ، وينطق التهديد بالقتل ، بمثل هذا البرود الجازم ، لكفيل بأن يكون تهديده جاداً لا ريب فى جديته وأحس بخوف ثقيل قاتم يرسب فى هدوء على قلبه . وبعد لأى قال فى صوت محتبس : « إنه كما قلت تماماً ياسيدى .. هذا ليس من شأنى .. المهم الآن أن تعطينى اسمك وعنوانك » .

وبعد لحظة صمت قال الرجل : « اسمى أحمد المزز ... وعنوانى : ١٣ جنينة عم فرج » ولا شك أن المندوب أحس بغرابة هذا الاسم ، كما أحس بغرابة العنوان ، بيد أنه كان فى موقف لا يسمح له بالمناقشة ، كما أنه صار راغباً فى التخلص من هذا الرجل بأسرع ما يمكن، فكان أن كتب ما أملى عليه بسرعة ، وأخذ الثمن وأعطى الإيصال .

وفى صبيحة اليوم التالى ظهر هذا الإعلان الغريب فى مكان بارز من الجريدة فى منتصف الصفحة الثالثة :



« يعلن السيد « أحمد المزز » عن قيامه بلعبة نادرة المثال ستثير مشاعركم إلى أقصى حد .. وتتلخص اللعبة في أنه سيلقى بنفسه من شرفة البرج الرمادى القائم في ميدان (س ..) ولرغبته في أن يسر عيونكم ، فقد اعتزم أن يحيط جسده بشرائط مبللة بالبنزين ثم يشعل فيها النار ، وذلك حتى يتاح للمشاهدين أن يتتبعوا مسار جسده وهو يهوى نحو الأرض وعلى الذين يرغبون فى ألا يفوتهم هذا المنظر الممتع أن يجيئوا إلى ميدان (س) حيث أن اللعبة ستتم فى تمام الساعة الثامنة مساء يوم ١٤ أكتوبر المقبل »

ولا يعلم أحد حقيقة الدوافع التى دفعت مدير التحرير إلى السماح بنشر مثل هذا الإعلان . وإن كان هو نفسه قد برر ذلك فيما بعد قائلاً : « كان إعلاناً غريباً حقاً ، ولا أنكر أنى تحيرت وترددت فى أول الأمر ، ولكن كان هناك اعتباران أولهما أن قسم الإعلان بالجريدة عليه التزام يجب أن يؤديه والثانى وهو الأهم فقد كان دافعاً إنسانياً بحتاً . قلت لابد من نشر الإعلان حتى نلفت الأنظار إلى خطورة هذا العمل وفى ذات الوقت نوجه نداء إلى صاحب الإعلان ، نهيب به باسم الحياة والدين والإنسانية ، ألا ينفذ تلك الطريقة الشيطانية التى صمم عليها » .

وكان ذلك حقاً ، فبعد الإعلان السالف مباشرة ، وتحت عنوان « نداء وضراعة » نشر هذا الكلام :

« نضرع إلى تلك الروح المنكودة التى تبغض الحيـــاة كل هذا البغض ، نضرع إليها باسم كل ما هو جميـــل فى هذه الحياة :

باسم الأمومة وحنانها ، باسم الطفولة وبراءتها ، باسم الحب وعذوبته ، باسم الطبيعة الحاوة ، باسم الشمس والقمر والنجوم والبحار ، باسم حبات العنب وثمار التفاح ، باسم الورود ونفحاتها الذكية ، باسم كل لحن طروب وكل أغنية باسم كل ذلك وفوق ذلك ، باسم الأمل ، ذلك الوهج الذهبى الذى يجعل الحياة طريق مسرات ، رغم الآلام والصعاب ، نضرع إلى تلك الروح ألا تلاقى ربها منتحرة .

أيها الرجل ، أيها الممرور ، أيها الحزين ، تعال إلينا .. إن كنت مريضاً ، فالأطباء كلهم لعلاجك . وإذا كنت فقيراً فأموالنا ملك يمينك . وإذا كنت خائفاً أزلنـــا الخوف من قلبك ، وأحللنا فيه السكينة والأمان ... فقط ، نناشدك الله ألا تقتل نفسك على هذا النحو البشع .

ولا شك أن القراء استوقفهم هذا الإعلان . ولعلهم تأملوا فيه قليلاً دون أن يصدقوه ؛ فقد داخلهم الريب فى أن يكون الأمر دعاية لفيلم أو لسلعة ... وعلى كل فنحن لا نستطيع أن نجزم بشىء فى هذا الصدد .

على أن هذا الإعلان قدر له الذيوع والتأكيد بعد ذلك بيوم واحد ، وقد تم ذلك على النحو الآتى :

قرأ الكاتب (ن ..) هذا الإعلان مصادفة ، فأحيا فى نفسه فكرة قديمة كانت تراوده بين الحين والحين ، وتدور حول طرق الانتحار . ولما كان الشك قد راوده فى صحة هذا الإعلان فإنه أراد أن يقطعه باليقين . اتصل بالجريدة التى نشرته حيث تلقى تأكيداً بصحته ، ومن ثم شرع فى الكتابة .

وظهر فى اليوم التالى مقال موقع باسمه . وقد جعل له هذين العنوانين « مجنون يعلن عن انتحاره ! ! . . » ، « طرق الانتحار وعلاقتها بالدافع »

وليس باستطاعتنا هنا أن نورد كل ما جاء فى هذا المقال — رغم طرافته — وإن كان يجدر بنا أن نذكر له بعض الأقوال الصائبة مثل قوله :

« من الفشل والغرور والألم ؛ يجدل الموت حباله القائمة للمنتحرين . إنه حتماً — فيما يبدو — على بعض الناس أن ينتحروا ... ليس هذا فقط ؛ بل وحتماً عليهم أن يختاروا طريقة معينة لانتحارهم . إن هذا يذكرنا ببعض المحاكم فى العهود القديمة ، التى كان قضاتها يتركون للمحكوم عليه أن يختار طريقة موته . والمحكمة قائمة والقضاة فينا ؛ إنهم ضمائرنا ومشاعرنا وأمزجتنا . إنهم هم وآلاف الارتعاشات الصغيرة ولعل القراء يوافقوننى على أن الذى يختار لنفسه أن يموت على فراشه فى حجرة هادئة — بعد أن يخط كلمات رقيقة يودع بها العالم — يختلف فى مزاجه ودوافعه عن ذلك الذى يلقى بنفسه

تحت قطار صاخب يحطم عظامه ... والذى يحرق نفسه أو يغرقها يختلف عمن يقطع شريانه . ولعل الأول دافعه السخط والموجدة ، والثانى دافعه الحزن واليأس .

ثمة وسائل كثيرة للانتحار : الشنق ، الحرق ، السقوط من أعلى . وهناك أيضاً الغاز والتخدير حيث يذهب الإنسان فى تهويمة ناعمة إلى آخر الدهر ... ومع ذلك فالذين يلجأون إلى تلك الوسيلة قليلون ! !

والآن يحق لنا أن نسأل : ما الذى يحدو رجلاً كأحمد المزز أن ينتوى لنفسه هذه النية التى أعلن عنها ؟ ... تمنعنى الأمانة ، وأسباب أخرى إنسانية عن الخوض فى تعليل هذه الدوافع الآن » .

وطالع الناس هذا المقال . وكان له رد فعل ؛ إذ عاد كثيرون إلى الإعلان وتحدثوا فى أمره . ونشط كتاب آخرون إلى التعليق والكتابة ، وإن كانت كتاباتهم مليئـــة باللغو والصيحات الجوفاء . من أمثال ذلك ما كتبه الأستاذ (ا . ب) وهو كاتب مشهور أيضاً ، جاءت شهرته نتيجة تكرار اسمه تكراراً مملا أمام أعين القراء . استهل مقاله بتلك الكلمات « بقلوب تفيض باللوعة العارمة ، وعيون مغرورقة بالدمع الهتون قرأنا فى جريدة (...) إعلاناً غريباً تعتبره النفوس الرقيقة صفعة مدوية على خد الإنسانية ... أين الضمائر الحية حتى يسمح بمثل هذا العمل ؟ ... أين الإنسانية ؟ ... أين

الرحمة ، بل أين الشرطة ؟ .. » وهكذا حتى نهاية المقال الذى شغل ثلاثة أعمدة فى إحدى كبريات الصحف .

والمقالات التى كتبت على هذا النحو كثيرة ولا يهمنا الإشارة إليها أو إلى من كتبوها . على أننا نستثنى منهم الأديب (ص . ص) وهو أديب جاد سوداوى المزاج يميل أحياناً إلى الهجاء . كتب معلقاً على مقال (ن . .) وكان من أهم ما جاء فى مقاله تلك الفقرة :

« تتكلم يا سيدى عن طرق الانتحار وتعددها بشغف وكأنك تعدد أنواع المسرات فى هــذه الدنيا . أنا لا أنكر ما فى مقالك من طرافة ، كما أنى لا أنكر ما فيه من حسن التعبير وعمق اللمسات ، ولكنى أعجب أشد العجب ... كيف غابت عن ذهنك المدقق ، تلك الحقيقة المرة الخافية وراء مثل هــذا العمل الذى ينويه أحمد المزز ؟ ! ! ... والحقيقة أن هــذا الرجل يعرف مقدماً أن إعلانه سيدفع الكثيرين — إن لم يكن الجميع — إلى المكان والزمان اللذين حددهما لمشاهدته ... إنه يعرف ما فى الطبيعة البشرية من وقاحة وجسارة وفضول حيوانى مقيت ، ويعرف أيضاً مافيها من قسوة مغلفة بشتى المبررات والأعذار . هو إذن يثق بأن الجموع ستأتى ، لمشــاهدته وهو يحترق ويتهشم على حجارة الطريق ... أقول (يثق) أليس هذا أمراً محزناً ؟... ولولا هذه الثقة لما فكر فى نشر هذا الإعلان ، بل لعله

ما كان ليفكر فى الانتحار أصلاً . انظر إلى قوله : « ولرغبته فى أن يسر عيونكم ... » أى سم ومرارة يقطران من هذه الكلمات ! !

تقول يا سـيدى « إنه مجنون » ولكنى أقول « هو فيلسوف » . وأغلب الظن أن هذا المزز يريد أن يبقى طعمه فى مذاق الناس أمداً طويلا » .

ولم تكد تمضى بضعة أيام على هذا الجدال فى الصحف ؛ حتى صار انتحار أحمد المزز من الأمور التى تشغل الرأى العام . واحتل اسمه قائمة الأحاديث اليومية المعتادة عن الجو والسياسة والحرب . ونشط الصحفيون فى أخذ الأحاديث من كبار علماء النفس والاجتماع ، وتمتع الكثيرون منهم بنشر صورهم وأسمائهم وآرائهم المضطربة المتناقضة ، وتناثرت على صفحات الجرائد أسماء علمية وقور مثل « الشيزوفرنيا » و « المالنكوليا » و « السيكوباتية » و « الغوبيـات » على مختلف أنواعها ، و « النقمة على المجتمع » و « جنون الشهرة » وغيرها وغيرها ؛ أسماء ضخمة ، مهولة ، معقدة .

ولم ينج رجال القانون من اللوثة ، إذ عادوا إلى التخبط فى براثن السؤال القديم « هل الانتحار جريمة ؟ .. » . أما الفئة الوحيدة التى ظل جميع أفرادها متشابهين فى الرأى هم رجال الدين ، فقد ظلوا جميعاً على رأى واحد لا يتزحزحون

عنه قيد أنملة ، فإذا سئل أحدهم عن رأيه فى الانتحار أجاب بملء فمه : « إنه كفر ومعصية »

وفى خلال الأيام القليلة التى سبقت يوم ١٤ أكتوبر ، استطاع بعض الناس – ممن يتمتعون بنشاط متهوّس غريب – أن يؤلفوا جمعيـــات إنقاذ .. وأعلنوا عن أنفسهم ، وعن استعدادهم للعمل والتضحية من أجل إنقاذ هذا البائس المنكود المدعو أحمد المزز ؛ فكان أن ظهرت هذه الأسماء اللافتة للنظر : « جماعة الإنقاذ الإنسانية » « جماعة العمل من أجل الحياة » وثمة طائفة أطلق أفرادها على أنفسهم « أطواق النجاة » . حدث هذا وأعلن للناس رغم أنه لم يكن لدى أى واحد من هؤلاء المنقذين فكرة واحدة من وسائل هذا الإنفاذ المزعوم .

الشخص الوحيد الذى كان لديه فكرة واضحة عما يجب أن يعمل هو حكمدار شرطة المدينة ، فمنذ اليوم الأول أصدر أوامره بإقامة شرطى مسلح عند مدخل البرج . وقد فعل ذلك لا بدافع من الإحساس بأهمية الموضوع ، بل بدافع من روتينية المهنة ، وبعد دقائق من إصدار هذا الأمر كان قد نسيه تماماً ، حتى أنه قضى ليلته دون أن يفكر فيه إطلاقا ولكنه بعد ذلك – فى اليومين التاليين – صدم بالضجة الهائلة التى قامت حول شخصية أحمد المزز .

والحق أن اهتمام الناس والصحافة بهذا الموضوع ، قد

أثار مخاوف الشرطة إلى الحد الذى جعلها تزيد من عدد الحراس المسلحين ، الذين راحوا يتناوبون الحراسة ليلاً ونهاراً . وليس هذا فقط بل إن مدير المباحث أصدر إلى رجاله أوامر مشددة بالبحث عن المدعو أحمد المزز ، والإتيان به فى أسرع وقت ، وقد ظن أنه من الميسور إيجاده خاصة وأن اسم (أحمد المزز) من الأسماء النادرة ، الأمر الذى يتيح الوقوع على صاحبه بدون جهد . ولكن رجال المباحث النشيطين استطاعوا أن يجمعوا — خلال أيام قليلة — ما يقرب من عشرين أحمد مزز . وحين عرض هؤلاء على مندوب الجريدة للتعرف على أحمد المزز الحقيقى أعلن أنه ليس فيهم . وأصيب رجال الشرطة بخيبة أمل ، واعتبروا الأمر مزحة ثقيلة من بدايتها ؛ خاصة وأنهم حين ذهبوا إلى العنوان ، وجدوا أن الذى يحمل رقم ١٣ هو مخبأ قديم من مخابئ الغارات ، أقيم فى خرابة واسعة يطلقون عليها — لسبب غير معلوم — « جنينة عم فرج » .

هذا والأيام تجرى . وكان مساء ١٣ أكتوبر بمثابة الوقفة ليوم ١٤ أكتوبر المشئوم ، وفيه أبدى رجال الشرطة والصحافة نشاطاً غير عادى ؛ فمنذ الصباح شوهد العمال منهمكين فى إقامة الكشافات الكهربائية حول البرج . وانتشر رجال المباحث بكثرة فى ميدان (س) وفى كل الطرق المؤدية إليه وهم لا ينفكون يرمقون العابرين بنظرات فاحصة

مرتابة . وجاء رجال الصحافة والتلفزيون ليعاينوا المكان وليحددوا أنسب الزوايا لإقامة أجهزة التصوير السينمائيــة والمرنائية . وحين جاء الحكمدار ، ومدير المباحث ، وكبار رجال الشرطة وشاهدوا هذه الاستعدادات تضاعف الخوف فى قلوبهم ، وقال الحكمدار لمن حوله : « ستكون فضيحة مدوية لو حدث شىء رغم كل هذه الاحتياطات وسنتحمل وحدنا مسئولية ماحدث» ومن ثم أمر بجعل أربعة جنود مسلحين عند مدخل البرج لا يفارقونه ، وزيادة فى الحذر ؛ أمر بأن يقف شرطى آخر مسلح فى أعلى البرج ، عند مدخل الشرفة التى كان من المنتظر أن يلقى أحمد المزز بنفسه من فوقها .

وأخيراً جاء ١٤ أكتوبر . ومنذ الساعة الخامسة بدأ جمهور الفضوليين يتدفق على الميدان فى حشود زاخرة . وكان رجال الشرطة قد أعدوا عدتهم لمثل هذا اليوم ؛ فأقاموا حاجزاً خشبياً حول البرج ليصد الطوفان البشرى بعيداً عنه ؛ فكان أن تكأكأ الناس حول هذا الحاجز .

واستطاع الكثيرون أن يجدوا لهم أصدقاء ممن يسكنون العمارات المحيطة بالميدان ، ومن ثم غصت النوافذ والشرفات بعدد غفير من الناس . وكان فى استطاعة العين أن ترى بعض أجهزة التصوير الضخمة تبرز فوهاتها من خلال النوافذ ، وكذلك كان ثمه كشافات قوية مثبتة فى أماكن متفرقة، وإن ظلت غير مضاءة .

وكان البرج الرمادى - الذى هو محط أنظار الجميع - قائماً فى طرف الميدان . وهو بناء اسطوانى الشكل يرتفع بعيداً فى الفضاء ، ويختفى أسفله فى أكمة من الأشجار القصيرة والأعشاب . وكان الناس يمرون عليه كل يوم فى غدوّهم ورواحهم دون أن يحظى منهم بالاهتمام ؛ فالأبنية كالبشر تصاب أحياناً بضعف الشخصية . ولا يعرف أحد من بناه ، ولا ماذا كان الغرض من بنائه ... وهذه حقيقة ظلت مجهولة حتّى الآن لم يتطرق إليها فضول الصحفيين .

وأخذ الوقت يمر بطيئاً ، وأخذ الناس يشغلون أنفسهم بالتكهنات والتعليقات،ولوحظ أن حالة من الترقب والفضول قد استولت على النفوس ، بل وقرّ فى الأذهان أن مثل هذا الحشد،ومثل هذا العدد الكبير من رجال الشرطة والصحافة؛ لا يمكن أن يكونوا قد اجتمعوا من أجل لا شىء ، إذ يجب أن يحدث شىء ... وسيطر هذا الوهم على العقول إلى درجة أغرت عشاق المقامرة أن يمارسوا هوايتهم ، وكانت المقامرة تتم على أساس « هل سيحدث شىء أم لا ؟ » وقد لوحظ أن الذين قامروا مختارين « سيحدث شىء » كثيرون جداً . وقال رجل فارع العود ، يتسامق برأسه فوق الجموع كأنه زرافة: « لو لم يحدث شىء فالأمر يدعو للسخرية، وإن حدث شىء فالأمر يدعو للسخرية أيضاً ! ! » .

وفى إحدى الشرفات المطلة على الميدان وقف الكاتب

(ن ..) والأديب (ص . ص) ومعهما بعض الأصدقاء .

وقد راح (ن ..) يرقب الميدان بنظرات هادئة فاحصة ، بينما (ص . ص) كان يبدو عابساً شاحب الوجه ، وقال موجهاً الحديث إلى (ن ..) :

— أشعر بأن الأوان قد فات ، ومع ذلك فهذا لا يمنعنى من أن أقول .. إننا أخطأنا ، إننا لم نحسن التصرف — هذا واضح — وكان يجب أن ننظر إلى الأمر بعين جادة .

وأصغى (ن ..) إلى صاحبه باهتمام ، ثم قال وهو يدارى وميض ابتسامة :

— أنت ترى أن المدينة كلها تنظر إلى هذا الأمر بعين جادة ، لعلها جادة أكثر من اللازم ..

ورد (ص . ص) على الفور .

— أبداً . إنها ليست العين الجادة ؛ إنها العين الشريرة العين الأسطورية الملعونة التى تصيب بسحرها الأسود كل حى فتحوله إلى مسخ .. والله وحده يعلم عن أى شيء سوف يسفر هذا اليوم .

وهز (ن ..) كتفيه قائلاً : « حسناً . ها نحن فى الانتظار » .

وأخذ القلق يزداد . ويزداد الفضول . والوقت يمر متلكئاً .. السابعة .. السابعة والنصف .. الثامنة إلا الربع الثامنة إلا عشر دقائق .. الثامنة إلا خمس ..

الشرطى الواقف فى أعلى البرج بدأ يتململ ، ويشعر
بسخونة تلفح جلده من تحت سترته الصوفية السوداء ،
وقال لنفسه متبرما : «لم اختارونى أنا دونالعالمين لأقف فى
هذا المكان اللعين ؟ » ، واستبد به ذعر لم يدر له تفسيراً
وكان الهواء البارد ينفذ إليه من الفتحات الضيقة فى الجدار
ويروح يضرب وجهه كالمطارف ، ورغم برودته فإن ذلك
لم ينل من الحمى التى اندلعت فى لحمه ، ومن ثم ألفى نفسه
فى حالة غريبة بين البرودة والسخونة ، حالة خوف مبهم
يثير الوساوس لأتفه النأمات حفيف الريح يجعله يتوجس
وينتفض فتتشنج أصابعه على بندقيته ، وحاول عبثاً أن
يسيطر على نفسه ؛ فقد أحس كأنه واقع تحت تأثير قوة
شيطانية تثير فيه مشاعر غريبة عنه ، وشمله إحساس
بالضيق والاختناق ، واستبدت به رغبة لا تقاوم فى أن
يلقى نظره على الجماهير المحتشدة . تقدم خطوة نحو الشرفة
ومط عنقه خارجها لينظر إلى الميدان ؛ وما كاد يفعل حتى
صك أذنيه هتاف عارم ؛ هتاف آلاف الحناجر ، فأسرع
يسحب رأسه إلى الداخل ، واستند إلى الجدار مبهوراً
بأصداء تلك الصيحات البشرية العاتية . يا للروعة ! ! ..
توهم أن لحمه اسفنجة تمتص ذلك التهاف المخملى الدافىء ،
شىء ما فى أعماقه بدأ يشرب منه ويرتوى ، شىء بدأ
استسلام ممتع . ولم يستطع أن يقاوم الرغبة فى أن يعيد الكرة

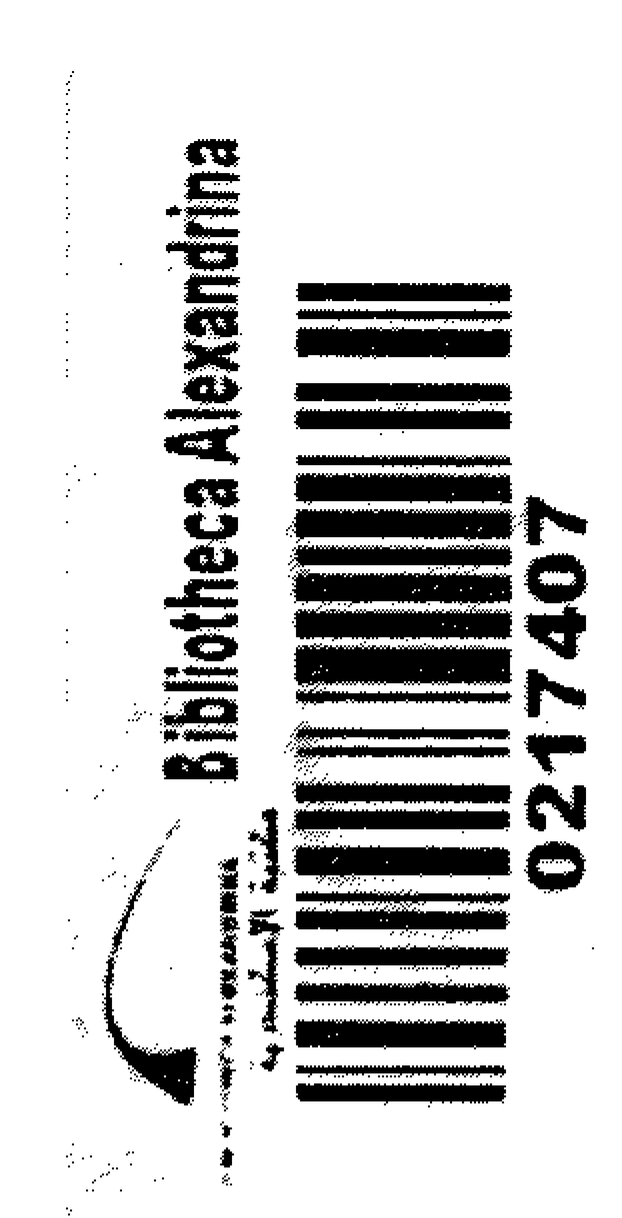
فتقدم وأطل بنصفه العلوى كله ، ومرة أخرى صعدت إليه الهتافات مهورة ضارية ملهوفة .. وعاد بسرعة إلى الداخل وأسند ظهره إلى الجدار لاهث الأنفاس ، ومرصع الجبين بقطـــرات من العـــرق البارد ، وفى خياله ترقص آلاف الرءوس السود والأيادى البيض حول الميدان الخالى ، الذى يبدو كطبق أسمر محلى بالخطوط . وفجأة ومضت على فمه ابتسامة ملتاثة كمن وقع أسير حلم مهوس سعيد ، وفى ذهول أسند بندقيته وخلع سترته وتقدم نحو الشرفة . وحين ظهر فيها بالقميص الأبيض والبنطلون ؛ ضج الهواء بالهتاف وارتج ، وتوهجت عشرات الأضواء الفسفورية الخاطفة — من أجهزة التصوير — كأنها الشهب ، وسطع ضوء كاشف قوى بهر عينيه ، وزأر فى الجو بوق عربة النجدة .. اســتبد به شعور غليظ مسكر ، وفى لحظة كومض البرق ألقى بنفسه من حالق .

وفى اليوم التالى — حين تكلمت الجرائد عن هذه الحادثه — لوحظ أن عدداً كبيراً — ممن تصدوا لهذا الموضوع — قد أهملوا الاسم الحقيقى للشرطى المنتحر ، ومنحوه اسماً مستعاراً هو « أحمد المزز » !! ؟

المحـــتوى

صفحة

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلى بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠٢٦٨ ص.ب ٦٣٤١١



مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ س.ت ٦٣٤١١